

العثمانيون في الميزان الإسلامي والعربي

بحوث ودراسات في تاريخ الدولة العثمانية

إعداد

د . عبد المنعم إبراهيم التستوي الجميلي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ورئيس قسم التاريخ بكلية التربية دار جامعة القاهرة بالقاهرة

رقم الترخيص: ٩٨/٨٨٩٧
التسجيل الدولي: I.S.B.N.
977.5399.06.8

تمهيد

تختلف الروايات حول أصل الأتراك العشائيين ، وإن كان العديد من المؤرخين يرجع نسبهم إلى إحدى قبائل "غل الخزر" وهي قبيلة "كابي خان" التي كان يتولى أمورها سليمان شاه وكان موطنها الأصلي أواسط آسيا ثم غرقت تحت الضغط المغولي صوب آسيا الصغرى والأناضول في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي . وخلال ذلك تولى "سليمان شاه" ، وتولى إدارة هذه القبيلة ابنه "أرطغرل" ، وفي أثناء تنقل هذه القبيلة بحثاً عن المأوى ومصائر العيش شاهدت جيشين يقتتلان ، وأدركت أن أحد هذين الجيشين ليس نداً لآخر فالتصمت القبيلة إلى جانب الجيش الضعيف الذي كان يقى هزيمة مروعة - من جانب باب للجنة - وكان تضمها إليه ميباً في انتصاره . وبعد المعركة تبين أن هذه القبيلة تنحلت لتصرة إلى جانبها وهم الأتراك تسلحاً الذين كانوا يحاربون تحت قيادة سلطانهم علاء الدين ، وأنهم كانوا يحاربون إحدى الفرق المغولية التي أركان إليها استكمال فتح آسيا الصغرى (١) . ونتيجة لذلك استجاب السلطان علاء الدين لطلب "أرطغرل" بأن يمنح قبيلته مكاناً تستطيع الجيش والاستقرار فيه (٢) ، فلم يلبثه عدة أعوام ومثلاً ، وصار يعتمد عليه في حروبه . وكان يقطع له أرضاً جديدة عقب كل انتصار يتمكن من تحقيقه ويمنحه أموالاً جزيلة . بخلاف إلى ذلك أنه لقب قبيلته بمقدمة السلطان لوجودها دائماً في مقدمة جيوشه . وعاش "أرطغرل" في خدمة السلطان علاء الدين إلى أن توفي في عام ٦٨٧هـ الموافق ١٢٨٨م فعين علاء الدين أكبر أولاد أرطغرل مكانه وهو عثمان مؤسس الدولة العثمانية (٣) .

١ - عبد السلام فهمي : السلطان محمد قلاوچ فاتح القسطنطينية وكناز القروم ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨١ من ٦٦ .

٢ - عبد العزيز قسطنطوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مغارى عليها ، القاهرة ، الأطوار المصرية ١٩٨٠ من ٢٢-٢٤ .

٣ - Edward , S. Creasy : History of the ottoman Turks , Beirut, 1968 , P. 2-4 .

٤ - محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق (إسماعيل حقي ، بهويث ، دار الفيلسوف ، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١م من ١١٦-١١٧ .

وقد توج عثمان توج والده في الجهاد حيث استولى على قلعة "توجه جصبار" التي كانت تابعة للروم وذلك في عام ١٢٨٩م ، وقد تولى السلطان صلاح الدين علي ذلك بأن سمح له بتسريب "السكة" باسمه ، وأمر بأن يذكر اسم عثمان بجانب اسمه في خماره الجمعة ، ومنحه كل الأراضي التي تم له فتحها ، وكذلك الأراضي التي سيتمكن من فتحها بعد ذلك مما تسبب في ذبوع صيت عثمان - ولعل السبب الذي دفع السلطان علاء الدين إلى ذلك هو أنه أراد أن يجعل من عثمان وقبيلته قوة للدولة السلجوقية التي بدأ الضعف يتسرب إليها .

وبعد سقوط دولة سلجوق الروم على يد المغول في عام ٦٩٩هـ ، ووقاة السلطان علاء الدين الفتح المجال أمام "عثمان بن أرطغرل" الذي استقل بما تحت يده من بلاد ، واقتطعت من مدينة "بني شهر" عاصمة له ودعا نفسه "إيد شاه عثمان" أي سلطان العثمانيين .

وهكذا بدأت الدولة العثمانية على يديه ، واعتنق العثمانيون في عهده الإسلام ، وأصبح عقيدتهم الدينية الرسمية ، وبعد وفاة عثمان في عام ١٣٢٩م واصل ابنه أورخان ، ومن جاء بعده السير على سياسته ، واستطاع العثمانيون أن يملأوا التاريخ أحداثا ، ومرت عليهم مظاهر عديدة من الحضارات ، وأصبحت إمبراطوريتهم مترامية الأطراف حيث امتدت أقاليمها وولاياتها في آسيا ، وأوروبا وأفريقية ، وأصبحت أكبر دولة إسلامية يشهدها التاريخ فكانت حدودها تمتد شمالا إلى بلاد المعز في أوروبا وتشمع أراضيها كلا من بلاد اليونان والبوسنة والهرسك والجيل الأسود وألبانيا وبلغاريا والمجر والهند ، وتمتد شرقا من حدود ولاية جورجيا إلى حدود داغستان وما يلي ذلك من الشرق والجنوب والغرب أرمنيا والأناضول وما بين النهرين وبلاد العرب وسورية ومصر والسودان ويرة وطرابلس وتونس .

وفي تاريخ الدولة العثمانية الكثير من الدروس سواء أكان ذلك في مجال الحرب أو في مجال السلم . لقد توالى على عرش الدولة العثمانية ستة وثلاثون سائطا كان منهم

١ - سالم الرشيدى : محمد الفتح - إسطنبول ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٩م
من ٢١ - ٢٢ .

من لا يأتي الدهر بمثلهم إلا على قاررات من الزمن ، وكان ملهم بين بين ، كما كان منهم من لا يصلح مطلقاً لتولى هذا المنصب الخطير الذي وصل إليه عن طريق الوراثة مما ساعد على ختم هذه الدولة ودك أركانها .

وسلاحظ القارئ لهذا الكتاب أنه يحوى العديد من البحوث والدراسات العثمانية لبعض القضايا والمشكلات التي لازمت تاريخ الدولة العثمانية ليس خلال فترة قوتها بحسب بل وخلال فترات ضعفها أيضا .

لقد شملت هذه الدراسة موضوعات متعددة بدأت بفتح القسطنطينية على يد محمد الثاني في عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م وتطرق إلى موقف الدولة العثمانية من سقوط الأندلس ، وإلى الاكتفارية وأدورهم في الفتوحات التي قامت بها الدولة حتى تم القضاء عليهم بعد أن دب الضعف والفساد في نظامهم . كما تطرقت إلى الفتح العثماني للعالم العربي والحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية ، وتناولت السلطان عبد الحميد الثاني ودعوته إلى فكرة الجامعة الإسلامية حتى تم إسقاطه وإسبلاء جماعة الاتحاد والترقي على الحكم ثم قيام الحرب العالمية الأولى .

وتأتي البحوث إلى نهايتها مع دراسة نقدية بعنوان الدولة العثمانية ما لها وما عليها لوضحها فيها تعاقب والمآخذ التي ألغيت على العثمانيين بشكل يتماشى مع ملهاج البحث التاريخي .

والله ولي التوفيق ..

أ. د. عبد المنعم الجمعي
القاهرة - مدينة المهندسين
أغسطس ١٩٩٥

الموضوع الأول

السلطان محمد الثاني وقتل القسطنطينية

تسابق المسلمون إلى فتح القسطنطينية منذ أن فتح العرب بلاد الشام (١)، وذلك مصداقا للحديث الشريف: "تفتحن القسطنطينية، فتعم الأمير أميرها، وتعم الجيش ذلك الجيش" (٢)، ولكن كل محاولاتهم لم يتحقق لها النجاح حتى بعث الله الأمر للسلطان عثمانى محمد الثاني فتمكن من فتحها، وفيما يلي نعرض لهذا السلطان، وذلك الفتح.

أولا : السلطان محمد الثاني :-

ولد السلطان محمد الثاني في السادس والعشرين من شهر رجب ٨٢٣هـ الموافق للعشرين من أبريل ١٤٢٩م، وقضى أيام طفولته الأرمي في "خرنه" تحت رعاية والده السلطان مراد الثاني الذي اهتم بتكوينه عسكريا فطمع بقون الرومية والحرب، كما اهتم بتلقيه مبادئ الدين الإسلامي حتى يؤهل لتأثير لمة النصرانية عليه (٣). وقد تولى محمد الثاني السلطة في عام ٨٥٥هـ الموافق ١٤٥١م بعد تنازل والده عنها، ومبايعة أهل الحل والعقد له فأصبح بذلك السلطان السابع الذي يجلس عرش السلطنة العثمانية (٤)، وكان عمره وقتئذ لا يزيد عن الثانية والعشرين (٥). وقد تميز محمد الثاني بكفائه، وشجاعته، ولكائه، وشدة حرصه على الثقافة، ووجه العلوم والفنون، ومما يذكر عنه أنه كان يجيد عددا من اللغات منها التركية لغته

١ - لتفاصيل ذلك انظر: محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت، دار الفيل، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص ٦١.

٢ - ورد في مسند أحمد، وفي مسندك الملوك (حديث صحيح).

٣ - د. عبد السلام فهمي: السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم، دمشق، دار الفلم، ١٩٧٥م، ص ٣٦.

٤ - محمد فريد: المرجع السابق ص ٥٨.

٥ - إبراهيم حليم: التفتة العظيمة في تاريخ الدولة العلية، القاهرة، ١٩٠٥م، ص ٦٣.

الأسبان والعربية والفارسية والعبرانية ، واليونانية ، واللاتينية ، وتصنف أيضا بالعوجية البحرية ويانه كان نصيرا للعلوم ، هذا إلى جانب قدرته العسكرية والميدانية^(١) أكد خاض -بعد ثلاثي العديد من المعارك والحروب ضد أعداء الدولة ، واستولى على الكثير من البلدان ، وحاصر العديد من المدن ، وكان حمله الذي سرارده دائما هو فتح فلسطين^(٢)، ولعل السبب المباشر والرئيسي الذي دفعه إلى الإسراع في ذلك هو أن الامبراطور البيزنطي كسطنطين بالولوجس^(٣) كان قد اقتتل فرصة وفاة والد محمد الثاني وقام بأصلي استغلاله وفتح من خلالها أحد أمراء آل عثمان لكي يتولى عرش الدولة . ونتيجة لذلك شيد محمد الثاني لامة كبيرة سميت "روملي حصار" لمحاصرة القسطنطينية، كما أنه في فتح المدينة من البلدان المجاورة القسطنطينية لجعل جميع أراضي سلطنته متاخمة ببعضها ، لا يتخللها أي حائل ، هذا إلى جانب قيامه بتحصين مضيق البسفور لمنع أي هجمات تأتي من مملكة مارمارون كمساعدة للبيزنطيين على تلك الحصار^(٤) .

ثانيا : فتح القسطنطينية ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م :

جذبت القسطنطينية أنظار العالم من كل حنوب وصوب نظرا لموقعها الجغرافي الهام الذي كانت تشغله والذي يربط آسيا بأوروبا عن طريق مضيق البسفور الذي يصل البحر المتوسط بالبحر الأسود عن طريق بحر مرمرة ، ويشكل مضيق البسفور أهمية كبيرة حيث إن أقرب مملكة فيه بين الشملتين ألف متر فقط . قال نابليون بونابرت عن أهمية القسطنطينية أو كانت الدنيا مملكة ولعدة لكلمات القسطنطينية أصبح المدن لتكون عاصمة لروما^(٥) . وكان عهدها حوافظ كتاب دول الأتاتكة أن المساق إلى تلك العاصمة بصرا لا يحد له من الحدود في البحر ، كونهما بين : يوشاق الثلاثة كسطنطينيا الذي يقال له القوطيل ، ويوشاق الثلاثة الآخر ، يقال له البسفور ، والأمتدة ثلاثة على مرفق أوروبا ، آسيا ، وفصلها بينهما من أوروبا هو خفاش القوطيل ومن القسطنطينية المضيق هو : وبين القوطيلين بحر صغرى هو بحر مرمرة ، وهذا البحر يفصل آسيا من البحر الأسود ... جنوبها بعض الأناضول ... البحر من البحر الأبيض المتوسط^(٦) .

- ١ - محمد بن أرمين مسطفي، في أصول تاريخ العثماني ، بيروت ، دار الشروق ، ص ٦٥ .
- ٢ - عبد العزيز أوزار ، كتاب تاريخ الإسلام ، بيروت ، ١٩٧٣م ، ص ٤٨ .
- ٣ - محمد قزويني : تاريخ السيلق ، ص ٥٩ .
- ٤ - علي جويون : تاريخ الدولة العثمانية ، دمشق ، المكتب الإسلامي ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- ٥ - شارلي : دول الأتاتكة ، الاسكندرية ، ١٩٠٩م ، ص ٤٠٢ .

وتتميزت القسطنطينية أيضا بخصائص أسوارها الجديدة إذ إن هناك سورين من أسوارها طولها أربعة أميال بين شواطئ بحر مرمرة والقرن الذهبي ، أما السور الداخلي فارتقاه يبلغ خمسة وعشرين قدما ، ويوجد بين السورين الداخلي والخارجي فضاء ترابي يصل عرضه إلى سكين تقريبا ويوجد بالسور الخارجي عدة أبواب منها باب أدرة وباب المدفع (طوب قو) وباب العسكري^(١).
ولقد مر فتح القسطنطينية بعدة مراحل هي : -

أ - مرحلة الحصار :

وقد بدأ السلطان محمد الفاتح التآهب والاستعداد التام لفتح القسطنطينية قبل عام كامل من بداية حصاره لها حيث قام بمحاصرة أبواب المدينة الثلاثة الكبرى^(٢) . وحقق محمد الفاتح عدة اتفاقيات مع حكام الدول المجاورة له ، ثم قام ببناء قلعة هامة على شواطئ البسفور في يابس أوروبا وإطلاق على هذه القلعة اسم "روم إيلس حصار" وكان موقعها على مسافة تقدر بسبعة كيلو مترات قرب القسطنطينية . وقصد الفاتح من بناء هذه القلعة رد أي محاولة لوصلوا الإمدادات للبيزنطيين ، وقد شارك الفاتح عمال البناء في تثبيت تلك القلعة التي انتهى العمل بها في شهر شعبان من عام ٨٥٦ هـ الموافق ١٤٥٢ م ، وكانت هذه القلعة مثقلة للثقل ، وفي كل زاوية منها برج كبير للمراقبة ، كما نصبت عليها المجانيق، والمدافع الضخمة لمنع السفن المعادية من المرور إلا بعد تفحص دقيق ودفع الضريبة المقررة^(٣) . ونتيجة لذلك بدأ الأمير بطريرك قسطنطين الحادي عشر يشعر بالخطر المهدد وأن زوال عاصمته في طريقه إلى التفتيق ، فحاول تدراك الأمر بأن أرسل إلى محمد الفاتح بموافقة على دفع الجزية ، ولكن يتزوج من ولده^(٤) ، ولكن قسطنطين الخامس رفض كل هذه المسامحات وأقر "لها فتح المدينة ، مما اضطر قسطنطين إلى طلب المعونة من ملوك وأرباب أوروبا أردت فقطر المهدد على بلاده^(٥) .

١- عبد السلام قاضي : المرجع السابق ص ٨٦-٨٨ .

٢- سيد رمضان علي : السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية ، ج٢ ، الدار السورية للنشر ١٤٠٥ هـ/١٩٨٦ م ص ٢٤ .

٣- عبد السلام قاضي : المرجع السابق ص ٧٧-٧٧ .

٤- أربعة مراد فكتي التي طغت على أميرتها ، وكانت كذلك تأمل الفسبون من صرعا .

٥- علي حنون : المرجع السابق ص ٢٧-٢٤ .

ب - مرحلة الاستعدادات :

هذالك المخترع المجري الشهير "أوربان" أشهر صانع للدفع في زمانه ببعضه يئذان أوروبا يعرض على حكامها وملوكها اختراعاته^(١) فلم يأنفت إليه أحد بما في ذلك الامبراطور البيزنطي قسطنطين المعاد بالخضر الإسلامي . ولما عرض أوربان اختراعاته على السلطان محمد القاتح مدد بالمال ، وأقبل تنفيذ اختراعه ، ووفر له كل متطلباته فقام أوربان بتصميم مدافع ضخمة كان من أبرزها مدفع كبير وزن ٧٠٠ طن ، وثلاث قذائف ١٢ ألف رطل ، ويوزن ١٠٠ ثور ، و ١٠٠ رجل من الأقوياء^(٢) ليقمكوا من سحبه ، وكان مدى رماء أكثر من ميل^(٣) ، وكان يلزم له نحو ساعتين لسحبه^(٤) . وقد قطع هذا المدفع المسافة بين لارنة والقسطنطينية في شهرين . وقد أسمت المسائر الأتروجية هذا المدفع باسم المدفع السلطاني أو "محمدية" "Mohametta"^(٥) . وينساق إلى ذلك أن محمد القاتح تمكن من بناء مجموعة من السفن، ووضعها في بحر مرمرة لتكون حاجزا لمد مضيق الدردنيل ، ووصل عددها ما بين ٢٥٠-٤٠٠ سفينة . وأمام هذه الاستعدادات الواضحة من قبل العثمانيين اضطر قسطنطين إلى الاستعداد بملوك أوروبا وحكامها وكان من بين الذين أورا طلبه أهلى جلوة، فأرسلوا إليه أسطولاً بحرياً بقيادة جستنياني^(٦) ، وقد كلفه الامبراطور قسطنطين بمهمة الدفاع عن الأبواب الهامة وللقفل القلعة . وخلال ذلك الوقت تمكن محمد القاتح من عقد الصلح مع أمراء المناطق المجاورة له ، وظل حوالى ثمانية أشهر كاملة يجمع المواد والمؤن والرجال ويترهبهم ، واستعان بمجموعة من الصناع ليصنعوا له الأسلحة والمدافع ثم بدأ بعد ذلك في محاصرته للقسطنطينية بواسطة مائة وأربعين ألف مقاتل^(٧) .

- ١- سالم الرشيدى : محمد القاتح ، بيروت ، دار الطبع للمكتبة ، ١٩٦٩م ص ٩٠ .
- ٢- على حسن : المرجع السابق ص ٣٤ ، ولتر لوتروب ستودارد أن الممد كان ٧٠٠ رجلا . انظر حاضرت العالم الإسلامي - ترجمة عجاج توبهمن - المجلد الأول ج٢ ، قباى العالمى ١٣٧٢م ، ص ٢٢ .
- ٣- محمد فريد : المرجع السابق ص ٥٩ .
- ٤- لوتروب : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢٠ .
- ٥- سيد رضوان على : المرجع السابق ص ٢٤ .
- ٦- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦٠ .
- ٧- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ج٢٣ - ترجمة عبد الحميد يوسف ، القاهرة ، الإدارة الثقافية للجامة العربية ص ٣٦ . وقيل إن عدد المحاصرين بلغ ثلاثمائة ألف مقاتل . انظر لوتروب ستودارد : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢٠ .

ج - مرحلة بدء القتال :

بدأ زحف الجيش الإسلامي صوب أسوار القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح الذي كان في طليعة جنوده ، وقد قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام :

- ١ - المعينة : وكانت مؤلفة من جنود الأياضول بقيادة إسحاق باشا ومصعود بك ، وكان مركز عملياتها يمتد من الساحل الجنوبي عند بحيرة مرمرة حتى باب "طوب قو" .
- ٢ - المعصرة : يتألف مجموع جنودها من جنود أوربا والمتطوعين وغير النظاميين ويقوده كره به باشا ويكون امتداد هؤلاء الجنود عند سور القسطنطينية الشمالي في ميناء القرن الذهبي حتى "باب أدريّة" .

٣ - القلب : وهو مؤلف من جنود الإنكشارية إضافة إلى الفرق الخاصة التي اختارها محمد الفاتح وهي فرق انتحارية ، وكان يقود هذا الجزء من الجيش محمد الفاتح بنفسه ، ومكان هؤلاء الجنود أمام الجزء الأوسط من السور ، ويمتد من باب طوب قو حتى يصل "باب أدريّة"^(١) . وتركز أفراد هذا الجيش أمام بوابات القسطنطينية . هذا إلى جانب قيام الأسطول العثماني بتطهير بحر مرمرة من السفن البيزنطية ، واحتلاله لبعض الجزر .

وبعد كل ذلك بذلت المدافع العثمانية تلك بقائها لاسوار القسطنطينية حتى أحدثت فيها ثغرة تمكن البيزنطيون من سدّها . وقد حاول الأسطول العثماني محاولات جادة لتعطيل السلسلة الحديدية التي تقع في منخل القرن الذهبي ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل ، إضافة إلى فشله في التصدى لعدد من السفن التي أرسلها بابا روما محملة بالعتاد الحربي والمؤن حيث نشبت معركة بحرية بين الطرفين كانت هزيمة فيها في جانب العثمانيين^(٢) . وأمام هذا الفشل لم تأن هزيمة المسلمين عن السعي إلى تحقيق النصر ، وكان ذلك فشل دافعا قويا لهم لتسلك بالعزيمة ، ومواصلة العمل ، وهذا كان من أبرز الصفات التي تصف بها العثمانيون^(٣) ونتيجة لذلك فكر السلطان محمد الفاتح في طريقة أخرى يدخل بها سفله إلى داخل القرن الذهبي دون أن تعوقها السلسلة الضخمة الموجودة هناك وذلك عن طريق نقل سفله برا بمقدار ثلاثة ألبال من بحر مرمرة حتى تصل مياه القرن الذهبي^(٤) عبر بوزخ ترابي خلف مستعمرة "قلطة" فأمر جنوده بتكوين بعض العجلات الصغيرة في سبعين من سفله ، كما أمرهم بتجهيز الأرض وفرشها بكواح خشبية

١- عبد السلام فهمي : المرجع السابق من ٨٨ .

٢- سيد ربحان علي : المرجع السابق من ٢٩ ، ومشتد فريد : المرجع السابق من ٦٠ .

٣- علي حنون : المرجع السابق من ٣١ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق من ٦٠ .

مدهونة بالزيت والشحم^(١) ، ثم زلجت السفن على طول هذا الطريق وافرقت تلك الأنواع ، واستلحاح خلال ليلة واحدة أن يدخل سبعين سفينة إلى تلك المياه ، وخلال تلك كانت المدفعية العثمانية تطلق نيرانها على مدينة القسطنطينية لحماية تنبؤ تلك الفكرة^(٢) . وخلال الصباح فوجيء البيزنطيون بالأمر ، وتأكدوا من نجاح العثمانيين في محاصرتهم من كل جانب ، ومع ذلك فقد ظلوا في دفاعهم المتواصل عن مدينتهم ، فقد الأمير بطور قسطنطين مجموعة من المقاتلين ، وأخذوا في ترميم تحصينات مدينتهم المتهدمة ، وإعداد كافة وسائل الدفاع الممكنة عنها . وخلال ذلك أرسل السلطان محمد الفاتح إلى الأمير بطور قسطنطين يدعو إلى التسليم حقا للدماء على أن يتعهد بإعطاء الحرية الدينية للأهالي ، ولكن الأمير بطور رفض ذلك وأمر على الدفاع عن مدينته حتى الموت^(٣) مما جعل محمد الفاتح يشاغل من بيران مدافعه ، ويأمر باستمرار الهجوم البحري والبحري على المدينة المحسنة ، وحفر الأفاق من تحت الأسوار ، كما أمر محمد الفاتح ببناء قلعة خشبية كبيرة جاوزت في ارتفاعها ارتفاع أسوار مدينة القسطنطينية ، وكانت من ثلاث طبقات كسيت بالجود المنيعة المبللة حتى لا تحرقها النار . واستمرت مدافع العثمانيين في إطلاق قذائفها لمدة خمسين يوما في حين كان البيزنطيون وعلى رأسهم الأمير بطور قسطنطين ، وقائد القوات جستنيان لا ينامون الليل ويواصلون العمل من أجل إصلاح كل ما يتهدم من الأسوار ، وإعادة بنائه .

د - مرحلة الهجوم :

قبل بدء الهجوم عقد محمد الفاتح مجلسا حربيا في خيمته حضروه وزراءه ، وكبار رجال جيشه ، والعلماء والمشايخ وطلب منهم الرأي في استمرار الحصار من عدمه ، فما كان منهم إلا أن قالوا 'ما أتبنا هذا إلا للموت ولا نرجع'^(٤) وعلمت أصدر الفاتح أوامره إلى جنوده بالصيام لتطهير نفوسهم وتركيزها ، وأن يطلقوا من الله العون ، وتحقيق النصر وفي تلك الليلة علت صيحات التكبير والتهليل ، وقرعت الطبول^(٥) ونشبت الأشيد الحسامية ، ثم تلا نشيخ الأليات والأحاديث التي تحث على الجهاد وترغب فيه، وتقدمت قواته ، كما تقدمت أسوار المدينة من الخراج ، وبدأ يعد لكل شيء عنده ،

١- سيرة رضوان علي : المراجع السابق ص ٢٩-٣٠ .

٢- علي حسن : المراجع السابق ص ٣٤ .

٣- محمد فريد : المراجع السابق ص ٦٠ .

٤- سالم الرشيدى : المراجع السابق ص ١٢٠-١١١ .

٥- محمد فريد : المراجع السابق ص ٦٠ .

ثم عاد إلى خيمته ، ودعا كبار رجال جيشه وخاطبهم قائلا : إذا لم لنا فتح للمستوطنية تحقق فيها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزته ، وسيكون من حطنا ما أراد به هذا الحديث ، فألقوا إيماننا المعسكر فردا فردا أن الظفر العظيم الذي سوف نحزله «يزيد الإسلام قدرا وعرفا» ثم أمرهم أخيرا أن يتسكروا بتعاليم الشريعة الإسلامية ولا يخرجوا عنها^(٢١) فلا يمسوا الضعفاء بأذى ويتقوا الله في أعمالهم .

وفي صبيحة الثلاثاء ٢٩ من مايو ١٥٢٣م^(٢٢) (٨٥٧ هـ) بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية^(٢٣) ، وبوت الهجمات العارية تردد القهاتل والتكبير . ثم بدأ الجنود يتقدمون بسرعة نحو الأسوار ، ولكنهم ردوا على أعقابهم وأنزل بهم المدافعون عن المدينة خسائر كبيرة في الأرواح والمعدات ، ومع ذلك فقد حققوا شيئا هاما كان يهدف إليه السلطان محمد الفاتح وهو إنهاء المدافعين واستنفاد ذخيرتهم .

ثم تبع ذلك الهجوم هجوم آخر قامت به مجموعة من قوات "العاصمة" ولكنهم أخفقوا في مهمتهم واضطروا إلى الانسحاب ، ثم جاء الهجوم الثالث وقد قام به مجموعة كبيرة من حرس السلطان ورماته إضافة إلى ١٢ ألف جندي من الإنكشارية^(٢٤) ، وفي أثناء هذه الهجمات الثلاثة كانت المدفعية العثمانية تطلق قذائفها باستمرار ، ودون توقف من البر والبحر . وخلال ذلك استطاع أول رجل من جنود الفاتح اختراق السور ، وهو الجندي الإنكشاري "حسن طوق" ومع له سقط من على السور إثر ضربة بحجر كبير ، قبله مهد ترقائه الآخرين الطريق حيث استطاعوا أن يشقوا طريقهم إلى الأطراف الداخلية من السور في الوقت الذي كانت فيه مجموعة كبيرة من الجنود العثماني بقيادة محمد الفاتح تتقدم لتدخل المدينة من جهة باب السور الذي أحمله البيزنطيون ، وقد فوجئ بهم البيزنطيون وعلت صيحاتهم تردد كلمة "Polis Hele He" ومعناها احتلت المدينة^(٢٥) . وبدأت أعلام العثمانيين ترتفع فوق الأبراج من جهة "باب أبرنة" ومن جهة السور الذي يطل على مياه القرن الذهبي ، واستد القتال العنيف داخل شوارع المدينة ، وسقط فسطاطين آخر الأباطرة البيزنطيين ماثيلين في جراحه ، وقبله أصيب جده سكيثي

- حسن : المرجع السابق ص ٢٩ .

- سيد رضوان علي : المرجع السابق ص ٢٢ .

Edward Creasy : History of the Ottoman , P. 83 .

- برنارد لويس : استبوك وحضارة الخلافة الإسلامية - ترجمة سيد رضوان علي - جدة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٤/١٩٨٢م ص ٢١ .

- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٢ .

كانت لقوات « وهرب إلى إحدى الجزر البعيدة عن المدينة^{١١} . وبعد ساعات من إكمال سيطرة العثمانيين على الموقف دخل السلطان محمد الفاتح إلى المدينة ، وهو ركب جواده وحوله حرس الأكشارية ، وكبار رجال دولته ، وتوجه قاصدا كنيسة آيا صوفيا ، ثم نزل من على جواده ، وسجد لله شكرا على هذا النصر الكبير ، ودعا بالرحمة للشهداء من جنوده ، وبعد ذلك دخل الكنيسة وأمر بتحويلها لتكون الجامع الرئيسي بالمدينة^{١٢} ، ودعا أحد الأئمة ليصعد المنبر ويجهز بالعقيدة الإسلامية ، فسمع الإمام معانا «شهد أن لا إله إلا الله ، ولشهد أن محمدا رسول الله^{١٣} وبعد ذلك صليت أول جمعة فيه .

كما أمر محمد الفاتح بإقامة العديد من المنشآت الإسلامية في المدينة فتأسس الجامع المعروف باسم جامع محمد الفاتح ، وأيضا الجامع المشيد قرب ضريح أبي أيوب الأنصاري وإلى جانب ذلك أعلن محمد الفاتح عدم معارضته في إقامة الشعائر المسيحية، وضمان حرية المصارى الدينية ، والمحافظة على أمانهم^{١٤} .

وهكذا ارتفعت رايات الإسلام خفاقة على القسطنطينية وتمثلت معجزة أبي الإسلام، ومسطر لتاريخ لمحمد الفاتح صفحات المجد والبطولة ، فأصبح أول سلطان عثماني يطلق عليه أهل أوروبا لقب السيد العظيم ، كما أصبح مجرد سماع اسمه يثير الرعب والهلع في نفوس أعدائه .

وبعد أن وطد محمد الفاتح مركزه بفتح القسطنطينية أخذ يهتم بالتعمير والبناء ، ثم عاد إلى «الزينة» فاستقبله الناس استقبالا حافلا ، وبعدها ذهب إلى «بروس» للاستجمام والراحة استعدادا لمواصلة فتوحاته في أوروبا .

وقد استطاع محمد الفاتح أن ينضم إليه بلاد الصرب واليونان والألبان والجزر الرئيسية في الأرخيل وبهذا وطد سيادته في أوروبا حتى أن خلفاء لم يقتصوا بعده بلادا مثلما تحقق على يده^{١٥} .

١- سيد رضوان علي : المرجع السابق ص ٢٤ .

٢- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٣- برنارد لويس : المرجع السابق ص ٢٢ .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٥- مكرم الرشيدى : المرجع السابق ص ١٨٥-١٨٦ .

ونتيجة لذلك لم يكن أمام بعض المؤرخين إلا أن يتخذوا من فتح القسطنطينية في ٢٩ مايو ١٤٥٣ م بداية لتاريخ الحديث ، ونقله واضحه للعالم من العصور والنظمها الإقطاعية إلى العصور الحديثة .
وقد جعل الفتح من القسطنطينية عاصمة لدولته بعد أن خير اسمها إلى إسلامبول أي تحت الإسلام أو مدينة الإسلام^(١) . واستمر الفتح يحقق الانتصارات للإسلام والمسلمين حتى توفي في ٣ مايو ١٤٨١ م^(٢) ، فالتهمت أوروبا بوقائه وأعلنت الاحتفالات ونصبت الترنات بهذه المناسبة^(٣) ، فقد استطاع أن يهز عروش أوروبا ، ونجح في تحويل الكثير من سكان جنوب شرق أوروبا إلى الإسلام ، وجعل معظم الطرق التجارية البحرية الهامة خاضعة لسيطرة العثمانيين^(٤) .

١- محمد فريد : المرجع السابق ص ٦١ .

٢- Edward Creasy : OP. Cit , P. 62 .

٣- عبد السلام أهيم : المرجع السابق ص ٣١ .

٤- ول تيرنانت : المرجع السابق ص ٢٨ .



الموضوع الثاني

موقف الدولة العثمانية والقوى الإسلامية الأخرى من سقوط الأندلس

في أواخر القرن التاسع الهجري ، الخامس عشر الميلادي استمرت قواعد المسلمين في الأندلس لتسقط تباعا في يد أسبانيا النصرانية ، ولم يبق منها سوى مملكة غرناطة الصغيرة يملكها وثورها القائل .

وبعد أن تمتدت قشتالة وأرجوان على يدى فرديناند وإيزابيلا اعتزمت أسبانيا النصرانية توجيه ضربتها الحاسمة لما تبقى للإسلام في الأندلس فالتقت جيوشها على مملكة غرناطة التي كانت رغم صغرها وضعفها تمثل صولة الإسلام في أسبانيا ونواة التحرك الإسلامي تجاه أوروبا والذي بدأت طلائعه في التسرّج على يد الأتراك العثمانيين بعد فتحهم للتسليطية . وقد استعالت أسبانيا النصرانية في ذلك الحلف الداخلي الذي دب بين الأسر الحاكمة في غرناطة واضطرام المنافسة على السلطة ، وغبة نفوذ النساء على الحكم ، وانتشار الخطوب والفن والحروب الأهلية دلتها^(١) .

وفي تلك الأونة العصيبة توجهت أسرار أمراء وأهل الأندلس إلى القوى الإسلامية المعاصرة لهم في المشرق والمغرب معا يتنادون بها النجدة والغوث إزاء الخطر المحدق بهم وكانت رسائلهم ووفودهم تسيل تباعا إلى الأستانة والقاهرة ومراكش خاصة وأن هذه القوى الإسلامية كان لها مكانتها واسهامتها في خدمة الإسلام والمسلمين فالقوة العثمانية حلق الله على يديها فتح للتسليطية ، وراحت أفراتها تتابع فتوحاتها في أوروبا وآسيا وتنفذ بلواء الإسلام إلى أعين النصرانية فلكهضت مسالك الأتلاق والصرب والبوسنة والهرسك وليبيا وغيرها ، وكانت بمثابة القوى القادرة القاهرة التي تفتح المسالك المسيحية باسم الإسلام ، ويوسعها أن تدفع الغائلة عن المسلمين في أي مكان مما جعل أطلق أهل الأندلس تتسرب إليها لائقلاهم من محنتهم ولحققتوا بالأندلس للمسلمين .

١- لتفصيل نظر محمد عبد الله علان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصدين بها ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ص ١٦٦ وما بعدها .

وكانت هذه دولة المماليك الشراكسة في مصر والشام والجزيرة العربية الذين تحقق على أيديهم خزيمة المغول واجلاء الصليبيين من آخر معقلهم بالشام . وكانت أوروبا تتشاهم ، وتمثل لسلطانهم ألف حساب خاصة وأنهم كانوا يتحكمون في الميناء للتصريف المقدسة وبين رعاياهم العديد من النصارى . وكان هناك حكام المغرب الأقصى الذين كانوا يتمسكون بفكرة الجهاد ، وبأهمية المحافظة على ما تبقى للمسلمين من ممتلكات في الأندلس ، ويرغبون في وقف لطامح الممالك المسيحية القادمة في شبه جزيرة إيبيريا ، وقد تمثل ذلك في الحملات المتتالية للمرابطين والموحدين ثم المرينيين والتي كان من أهمها قيام المرابطين بمساعدة ملوك الطوائف ضد جيوش أسبانيا النصرانية في موقعة الزلاقة ١٠٨٦م وقيام السلطان المغربي يعقوب بن عبد الحق المريني بإرسال جيش حرار في عام ١٢٧٤م لمساندة أهل الأندلس في الانتصار على نصارى أسبانيا .

ونظرا لأن أهل غرناطة وحكامها شعروا بعدم قدرتهم وحدهم على تثبيت أقدامهم فقد استعانوا بهذه القوى ، وطلبوا منها العمل على إبعادهم من الخطر المحدق بهم والاحتفاظ بغرناطة للمسلمين ولكن ذلك لم يتحقق مما دفعنا إلى البحث عن الأسباب التي أدت إلى تقاعس هذه القوى عن نصرة الخوارج في الدين والملة على الرغم من أن نصرة الأحداث المؤسفة التي وقعت للمسلمين في الأندلس كانت تملاً بلاط حكام القاهرة والاستشفة وغيرها ، وتثير فيهم الاهتمام والعطف^(١) .

وحتى لتضيق لنا الأمور سنعرض لأحوال كل قوة من هذه القوى على حدة ، والأسباب التي باءت بينها وبين مساندة أهل الأندلس .

أولا : الدولة العثمانية :

كان من الطبيعي أن يتجه أهل الأندلس إلى الدولة العثمانية بمصلحتها كدولة إسلامية يتشددون مساعدتها عسكريا خلال صراهم من أجل الحفاظ والمحافظة على الدين والملة فأرسل أهل غرناطة في منتصف عام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م سفارة إلى استيول ملطية نظر السلطان محمد الفاتح إلى حالة المسلمين بالأندلس طالبين تدخله لانقاذهم^(٢) ولكنه كان مشغولا عنهم ولم يقدم لهم النجدة . وتكررت مطالباتهم بعد وفاة هذا السلطان لابنه

١- عن مصر الإسلامية وتاريخ الفسطاط المصرية - القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م ص ١٣٨ .

٢- عبد الجليل قنسي : رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني ، المطبعة التاريخية المغربية ، تونس - العدد الثالث يناير ١٩٧٥ ص ٣٨ .

بإيزيد فأرسل أبو عبد الله آخر ملوك غزنطانية رسولا إليه يلتمس منه التوجة لانتقال بلاده ، ونصرتة ضد ملوك النمساوي^(١) كما أرسل إليه أحد شعراء غزنطانية بقصيدة يسود فيها مأساة المسلمين ويستلجدهم لانتقامهم والدفاع عن حرمات المسلمين^(٢) .

وتختلف الآراء حول مدى استجابة السلطان بإيزيد لهذه الاستغاثه . فهناك من يقول إن الدولة العثمانية استجابت لنداء أهل الأندلس ، وأرسلت أسطولاً إلى المياه الأسيانية لمساعدة حاكم غزنطانية المصطفى^(٣) . وهناك من يقول إن مشاكل السلطان الداخلية قد حالت دون ذلك خاصة وأن نزاعه مع أخيه جم على العرش وما لثاره ذلك النزاع من مشكلات مع البابوية وبعض لدول الأوربية ثم التحالفات الصليبية ضد الدولة قد جعلته يصمم أنفيه عن تقديم التوجة لأهل الأندلس .

والواقع أن إرسال أسطول عثمانى لمساعدة أهل الأندلس في محتهم لم يثبت تاريخيا وإن كان هناك بعض المصادر الثانوية التي اشارت إلى ذلك^(٤) . حقيقة أن الدولة العثمانية كانت تمتلك جيشا يشار إليه بالثبات ، ولكن هذا الجيش كان قوامه قوات البرية وليست البحرية . بخلاف إلى ذلك أن هزائم الدولة العثمانية البحرية كانت تجعلها تعجز عن المخاطر^(٥) وتساعد أهل الأندلس المحاصرين بالشطلميه . واثنين كانوا في حاجة إلى قوة بحرية قوية وإلى جانب ذلك فإن السلطان بإيزيد كان ميالا للسلام أكثر منه للحرب ، وفي هذه عموما لم تحدث فتوحات تذكر .

ويميل بعض الباحثين إلى فكرة ساحة الدولة العثمانية بالنسبة لسقوط الأندلس بحجة أنها لم تكن تستطيع أن ترسل جيوشها إلى هناك بسهولة بينما يرى البعض الآخر أن العثمانيين قصروا في نصرة اخوانهم في الأندلس ، ولم يسارعوا إلى تجديدهم ودوائلتهم المتمردة لتتساقط الواحدة تلو الأخرى .

١- عبد العزيز الشاذلي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مغاربية عليها ج ٢ ، القاهرة ، الأجنحة المصرية ، ص ٩٠٣ .

٢- شهاب الدين شكري قنصلاني : أزهار القربان في ليلار عياض - تحقيق مصطفى الشاذلي والفرين ج ١ ، القاهرة ، ١٩٣٩ ص ١٠٩-١١٥ .

٣- ستانلي لين بول : الدولة الإسلامية ، القسم الأول - ترجمة محمد صبحي فرزات ص ٦٥ .

٤- نكر ستانلي لين بول أن السلطان العثماني ساق أسطولاً لتوجة أهل الأندلس بقيادة رجلا من حاشيته اسمه جمال ولكن لم توجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى هذا الأسطول في إلى قتيبه بنجدة قنمها السلطان لمسلمي الأندلس .

٥- تقاسميك ذلك تقدر الشاذلي : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٨٩٦-٨٩٨ .

وواقع ان الدولة العثمانية عقب فتح القسطنطينية في عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م كانت متشغلة في حروب متعددة مع النمساويين والامان والمجريين والابيان والصرب والبيج الاسود واليونان وامارات جنوة ونابلي وغيرها ، وكان على ان عثمان يذا لردوا إقناده الأندلس للقيام بمغامرة شير مالمونة العواقب حيث يتكون الجبهة الأوربية ، ومنطقة الأندلس مكتوفة ويذهبون للحرب على مسافة هائلة دون استحداث بحرية مجدبة لنقل الجنود من أقصى شرق أوروبا إلى أقصى جابوها الغربي لجهة جزيرة إيبريا ليجاروا حربا وسط الأيمن كبيرين هما أسبانيا والبرتغال المدعومين من كل القوى المسيحية في الشمال^(١).

وهكذا يتضح ان الدولة العثمانية لم تستطع لظروفها الداخلية والخارجية أن تمد يد المساعدة لمسلمي الأندلس لانقاذهم من الواقع في برائن الصليبية ، وبقي مسلمو الأندلس يواجهون ضراوة الموقف وحدهم .

ثانيا : دولة المماليك :

اتجه سلاطين غرناطة وأطرا إلى مصر ياتسبون معونتها أمام الخطر الصليبي المتدق ببلادهم فأرسل السلطان محمد بن يوسف بن نصر رسالة^(٢) إلى السلطان أحمد بن محمد بن قلاوون^(٣) يوضح له فيها الأحوال التي كنت إليها الأندلس وما يضمه الصليبي من شر ، ويأشده المساعدة لانقاذ الإسلام بقوله توالين غريب والغريب يحن إلى أهله والزمه كثير بأخيه على بعد محله^(٤) .

ويبدو أن المشاكل التي تفرق بها مصر السلطان أحمد قد حلت بونه وبين بسط يد المساعدة للأندلس ، خاصة وأن سلطنته لم تستمر سوى شهرين ونقسي عشر يوما^(٥)، ونتيجة لذلك تكرر طلب لتجددات من مصر فأرسل السلطان عبد الله بن محمد بن

١- محمود الشاذلي : المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن العلاقة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص ٥١-٥٠ .

٢- عن تمرى هذه الرسالة لظفر القاري : فتح الطيب من ضمن الأندلس للطيب ج١ - تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٢٢١-٢٢٢ .

٣- لخير لواء القاصر محمد بن قلاوون ، تولى الحكم لآخر عام ٧٤٢هـ .

٤- فتح الطيب من ٣٢٦ .

٥- ظفر محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ونتائجهم العلمي والأدبي ج١ ، القاهرة ، مكتبة الأديب ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ص ٤٣ .

لمسرح (١) حاكم غرناطة إلى الظاهر جقمق العائلي (٢) سلطان مصر برسالة عام ٨٤٤هـ، يلتزم منه الجندية والمعون عند "الفرانج الملبوسين" والتي يمكن من طرفها أن تدفع إلى السلطان في المملوكي في الدفاع عن أنفسهم ضد الخطر المحيط بهم (٣) وكان دور السلطان المملوكي على هذه الرسالة أن يرفع بعضه عن بلاد الأندلس، ولم تصعب تجهيز قوات عسكرية لمساندة لمحولة البحر والافتقار إلى المركبات الكثيرة وبمضاهاة (٤) المسلمين في مساندة غرناطة، وكان دور السفير على ذلك "أبو علي السلطان" لمصر كونه ألت تغيير العتوك والسلطانين، وخديم جرمقن الشريفين ولم لى إلا أن يستمر كونه وحاشا أن تردنا خباييس "ولم يوافق جرمقن على تقديم معونات مالية ومعدات عسكرية إلى غرناطة (٥)، ونتيجة لذلك ضغط النصارى على غرناطة وقام بإزالة مطلب الجندية من أميرها في عام ٨٤٧هـ وأعتقل الأمير لهذا الطلب بقرله في دار الضرب حتى لم تعد تضرب بحد ذهبية وأما تضرب القول "والسلطان الشريف الحرب بين النصارى وجيشهم فرفضه وإزايلا اضطر أمير غرناطة إلى إرسال بعض معيونه لمراسلة تقيي الأندلسي إلى بني بن محمد الأثري إلى السلطان الأثري في قباييتا (٦) في ذي القعدة ٨٤٢هـ/١٤٧٠م مستجده به عند المسيحيين ويستجده من الغزاة لمساندة أهل الأندلس (٧) في قتالهم للمحاصرين لبلاده لأنهم أشرفوا على أخذ غرناطة (٨).

ولما لم يكن في مقدرة السلطان المملوكي القيام بعمل عسكري لمساعدة أهل الأندلس خاصة وأنه كان يستعد للمعركة السلطان العثماني بايزيد الثاني ، هذا إلى جانب بعد المسافة بينه وبينهم وصعوبة المواصلات ، واحتياج الأسر لخدمة بحرية ضخمة لم يستطع إليها سبيلا فقد حاول انقاذ الموقف عن طريق الضغط السياسي فأرسل إلى كبير قساوسة كنيسة القيامة بالقس يذكرة بما يتمتع به نصارى الشرق من حريات وأمان على أنفسهم وعائلاتهم ويطلبه بإرسال مكتوبة على يد قسيس من أعيانهم إلى ملك نابلي^(١) وإلى بابا روما^(٢) للتدخل لدى ملك قشتالة وأرجون بأن يحمل عن أهل غرناطة ويرحل عنهم^(٣) ولا يتعرض لهم ويرد إليهم ما استولى عليه من أراضيهم ، وإلا لانه سيضطر لإزاء هذا العنوان أن يتبع نحو نصارى الشرق سياسة القصاص ، ويطلب عليهم المقاصب، ويقوم بالتكليف بهم ويعتصم من تحول كنيسة القيامة ويقتض على أعيانهم ويهدم الأديرة والمعابد والأثار النصرانية المقدسة^(٤) .

ومع أن كبير قساوسة كنيسة القيامة استجاب لطلب السلطان المملوكي ، وكتب ملك نابلي فإن هذه المحاولة لم تفلح بشيء .

وفي محاولة أخرى من السلطان المملوكي أمر بإرسال وفد من رعاياه للنصارى^(٥) إلى روما ونابلي ، وإلى الملوك كاثوليكين فرديناند وإيزابيلا يطلبهم على ما يثبت لأبناء دينه في غرناطة ، ويهددهم بالضبطهاد نصارى الشرق إن لم يكف عن مهاجمة غرناطة ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل أيضا^(٦) وسقطت غرناطة في صفر ٨٩٧هـ/١٤٩١م ولتحت بذلك دولة الإسلام في أسبانيا . ومع ذلك فإن وساطة الممالك وتوحيدهم لم تتوقف عند سقوط غرناطة فقد أرسل السلطان المملوكي وفدا إلى أسبانيا في عام ١٥٠٠م للتعرف على إذا ما كان المسلمون الأندلسيون قد أجبروا على الارتداد عن

١- هو فرديناند الأول .

٢- هو البابا أوسمان الثامن .

٣- ابن أبيس : المصدر السابق ص ٢٤٦ .

٤- Prescott, William, H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic, London 1895 P. 278 .

٥- تكون هذا الوفد من راعين من جماعة القسيس الفرنسيين لمدعاهم قس تطونير ميلان رئيس دير القسيس الفرنسي في بيت القس . وقد وصل هذا الوفد إلى أسبانيا في عام ٨٩١هـ/١٤٨٩م إلى قبل سقوط غرناطة . انظر حان : نهاية الأندلس ص ١٦٧-١٦٨ وأيضا Prescott: op. cit P. 278 .

٦- لم يفلح السلطان المملوكي وعنده بقاءه ليرادات خليفة ضد النصارى لانشغاله خلفا بعد غارات بايزيد الثاني على حدود مصر الشمالية ، وانطراب أعمال مصر خلال هذه الفترة .

ديهم واحتلاق التصراية ، وهنّ متى ضحة ما تردد عن تحويل المساجد إلى كنائس ، وأخير الملك فرديناند والملكة إيزابيلا بأن السلطان للملكى سوف يقابل الاعتداء بمثلته ، ويثّر للمسلمين باضطهاد النصارى الفاضحين لحكمه^(١) . وكان رد فرديناند على ذلك هو محاولة اقتراح سلطان مصر بما يلقاه المسلمون في الأندلس من الرعية ، وأن يملئنه على مصيرهم .

والسؤال المطروح هل كان في مقدرة مصر القيام بعمل عسكري لاقتحام أهل الأندلس ؟

الواقع أن بعد المسافة ، وقصور إمكانات المعاليك الجراكسة البحرية خاصة وأنهم لمساحيل خيل وأفرتهم بركة أكثر من كونها بحرية كان السبب في التناقص عن اقتحام الأندلس ، وإن كان ما فعله المعاليك لا يتعدى قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال المؤثرات الدينية مما أدى إلى ترك الأندلس لمصيرها^(٢) .

ثالثا : المغرب الأقصى :

تولت تدامات أهل الأندلس لمولوك المغرب وحكامها يلتصقون نصرتهم ويطلبون منهم الفرح والفرحة غير أن الأوضاع الداخلية التي كانت عليها بلاد المغرب خلال هذه الفترة ، وانقسامها إلى دويلات عدة تحاول تملق بعضها بعضا وإزدياد النفوذ الأسباني البرتغالي على السواحل المغربية كل ذلك جعل من الصعب القيام بإجراءات فعالة لتصرة أهل الأندلس^(٣) وانقلاهم من العاصم التي تعرضوا لها كما حدث في الماضي غير مرة^(٤) فسقطت غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام وطويت صفحة الحكم الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا .

وبعد هذا العرض لمواقف القوى الإسلامية من الأندلس أثناء محنتها وطرح سؤال نفسه لماذا لم تتكبر القوى الإسلامية وتلتقي على خطة موحدة لمساعدة أهل الأندلس وانتقاهم من السقوط بعد أن داهم العدو ساحاتهم ومد الصليب ذراعيه إليهم على الرغم من أن القرآن الكريم والسنة النبوية يحضمان على ذلك فيقول تعالى "إن الله يحب المحبين

١- مؤلف مجهول: وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرقاوي ، القاهرة ، دار الهداية ص ١٢-١٣ .

٢- عثمان : مصر الإسلامية ص ١٤٣ .

٣- الشرقاوي : مرجع سابق ج ٢ ص ٩٠٤ .

٤- Irving, Wilegends of the conquest of Spain P.P 220-221 .

يقالون في سبيله جفا كأنهم بيان مدحهم" ، ويقول الرسول الكريم "مراخيت قدما وفي

سبيل الله حربها الله على الناس" و"نحن غارنا فرسب الله قد غزا".

الواقع أن العلاقات بين القاهرة والأندلس خلال هذه الفترة كان يسودها القسوة والظلم خاصة وأن العثمانيين كشلوا مرارا عن نيتهم في بجزو مصر ، مما جعل حكام مصر يلقون منهم موقف الحذر المتأهب ، وينصرفون إلى الاستعداد للقتال بدلا من مساعدة أهل الأندلس . يضاف إلى ذلك ما كان بين العثمانيين والصوفييين في إيران من صراع وصل مداه إلى حد أن يقوم إنشاء إسماعيل الصفي يطلب المساعدة العسكرية من ملوك أوروبا الذين حرصوا على توسيع شقة الخلاف بين الدولتين الإسلاميتين فتصالح البرتغاليون مع الدولة الصفوية منذ الدولة العثمانية كما دخل إنشاء إسماعيل الأول في مراسلات مع الإمبراطور شارلكان للتصالح منذ العثمانيين ، يضاف إلى ذلك أن الصراع في المغرب الأقصى للوصول إلى الحكم والحروب الطاحنة بين الأسر المتنافسة قد حال دون تقديم المساعدات اللازمة لأهل الأندلس .

وهكذا يتضح أن السبب الرئيس في محنة الإسلام بالأندلس نتج عن فورة المسلمين وتشرتهم ، والعداء المستحكم بين حكامهم ، وتجاه حكام أوروبا في توسيع شقة الخلاف بين هؤلاء الحكام لدرجة أن استعان بعضهم بالتصاري ضد أخوانهم في الدين .

وعلى أي حال فقد استوعب لعثمانيون الدرس جيدا ، ورفضوا تكرار ما حدث للأندلس في أي منطقة إسلامية أخرى واستمرت عقدة الشعور بالذنب تلحقهم حتى ولتهم الفرصة لاستعادة لفة العالم الإسلامي بهم علما طلب منهم أهل شمال أفريقيا لتجدة ضد البرتغاليين والأسبان فقام السلطان سليم الأول بحسم الموقف ، ومساندة العثمانيين وتثبيت دعائم الإسلام هناك .

الموضوع الثالث

الانكشافية

لما كان الطليع العسكري الشديد الصرامة إحدى سمات الدولة العثمانية ، لم تغفل هيئة بها يمثل الاهتمام الذي ظفر به الجيش العثماني وخاصة لها كانت تنظر إلى الجيش على أنه أداتها في الفتوحات الحربية ، ووسيلتها في حكم الأقاليم التي استولت عليها ، ودرعها في الدفاع عن ممتلكاتها^(١) لدرجة أن شبه بعض المؤرخين الجيش العثماني بعملية نقل على أحد وجهيها لقلعة الحرب ، وعلى الوجه الآخر كلمة الحكم .

وإذا اعتمد قوام الجيش العثماني على تجنيد أبناء رعايا السلطان من المسيحيين ، وذلك من طريق طريقة تسمية فرضتها الدولة على رعاياها الذين يعتقدون مذهب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية القائمة في استنبول سماها العديد من المؤرخين "تسمية العثماني" وسماها بعضهم "بيوشيرمه" ، فقد كان العشرات من صغار هؤلاء الرعايا يؤخذون من أهلهم ، ويتم تنشئتهم بطريقة تكسب بالصرامة والتدريب العقلي والجسمي ، كما يتم تحويلهم إلى الإسلام ثم يختار منهم من يصلح للعمل في مشاة الجيش العثماني ويطلق عليهم الانكشارية ومعناها الجنود الجدد ، ومعنى ذلك أن هؤلاء الجنود كانوا بمقتضى اعتناهم بالإسلام وإعدادهم عن بلاتهم الأصلية وترسيخ الولاء للسلطة في نفوسهم يفتقدون روابطهم الأصلية ، كما أنه لم يكن في إمكانهم تكوين روابط اجتماعية جديدة وخاصة أنه لم يكن يسمح لهم بالزواج ، ولم يكن لهم اقارب بين الأهالي ولم يكن يسمح لهم بأن يتعدوا عن مكانتهم وبذلك تولدت روح الجماعة بينهم ، كما تعسق ولازمهم للسلطان^(٢) وصاروا لا يعرفون لهم أبداً إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد في سبيل الله^(٣) ، ولا

١- عبد العزيز كشاور: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفتري عليها جداً، القاهرة ، الأجنحة المصرية ١٩٨٠ ، ص ٤٧١ .

٢- Edward Creasy : History of the Ottoman Turks, London 1818, P. 14

٣- محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٤٢ .

ممكنًا إلا تكتاتهم العسكرية .

وترجع فكرة فرض ضريبة العلمان إلى وزير السلطان "أورخان" ثلثي سلاطين آل عثمان التسمي "هابيل الأسود" . وقد أعجب السلطان بهذه الفكرة ، ولما تجمع لديه عدد غير قليل من هؤلاء العلمان سار بهم إلى الحاج يكتاش شيخ الطريقة اليكتائية ليدعوهم بغير قذع لهم هذا الشيوخ بالنصير على الأعداء وقال اليكن اسمهم (بني تشاري) أي الجيش الجديد ، ثم حرف هذا الاسم في العربية فصار الاكشاري ، وبالتدريج ازداد عدد هؤلاء وصاروا من أهم الركائز التي اعتمدت عليها الدولة في حروبها وبسط سيطرتها^(١) ولكنهم صاروا بعد ذلك من أسباب تلخر الدولة وتدهورها . وقد بلغ عدد كتائبهم التي كانت تسمى كل منها لورطة ١٦٥ كتية ، ولم يزد عددهم على خمسة عشر ألف رجل^(٢)، وكانت هذه الكتائب منتظمة تنظيمًا متشابهًا وتعداد كل منها متساويًا ، وكانت كل منها تحت قيادة ضابط يدعى (الجورباجي) يساعده ستة من مروضيه وعدد من ضباط الصف ، وكانت تقيم في ثكنات تسمى لورطة) ولكل كتية شارة توضع على أعلامها وعلى أبواب ثكناتها^(٣) ، كما كانت توضع هذه الشارات على الأربعة الاكشارية وسبقاتهم عن طريق الوشم ، وهذه الشارات كانت عبارة عن سمكة أو مفتاح أو خطاف . وكان ضباطهم يتقنون بالقاب كل على لئهم كانوا يعيشون من المعامات السلطان ولهم كالأولاد ، ومن الكتيبة "شوريجي باشي" و "عشي باشي" و "أوده باشي" و "سقا أمانسي" إلى غير ذلك من الألقاب ، وكانت هذه الألقاب عندهم بمثابة عنوانات خاصة بالرتب العسكرية ثم أنهم كانوا يعظمون قدور العلماء ولا يفرقونها حتى زمن الحرب ، وكانوا يدافعون عنها دفاع الجنود عن أعلامهم لدرجة أن ضياع إحدى هذه القدور كان بمثابة إهانة تلحق بأصحابها لعار ، وكانوا إذا أرادوا إظهار عدم الرضا من بعض أوامر رؤسائهم يقتبسون القدور أمام ثكناتهم^(٤) .

وكانت تراثات الاكشارية تتم طبقا لقواعد الأئمة ، وكانت الدولة تسرح للذين تقدم بهم السن أو تصنيفهم عالية لتعديهم ، وفي كلتا الحالتين تقرر لهم الدولة معاشًا .

١- محمد فريد : المرجع السابق ٤٦ .

٢- كنزل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه لمين ومطير البيشكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ ص ٤٦٦ .

٣- المجلة التاريخية المغربية ، السنة التاسعة العدد ٢٥-٢٦ في يونيو ١٩٨٢ ص ١٠١ مقال الدكتور علاء موسى كاتم تحت عنوان "سنوات الاكشارية في تدهور الدولة العثمانية" .

٤- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٦ .

وقد خلصت الدولة الإنكشارية بعدة امتيازات منها أنهم كانوا يتقاضون رواتبهم من خزانة السلطان ومنها منحهم حصانة تمنع السلطات المدنية من القبض عليهم ، وقيام ضباط الإنكشارية بمعاقبة الأفراد لمخالفين بقوانينهم . وكانت العقوبات تتفاوت بين الجلد والسجن والخصاء والاعدام ، وكانت عقوبة الخصاء ترفع على معذبات الأجرام من الإنكشارية أو ممن تكبدت حوادث خروجهم على قواعد الانضباط العسكري فيأمر رئيس الإنكشارية بإجراء عملية الخصاء الجزائي أو الكلي لمن يمكن عليهم بذلك ويمقتضاهما ينقد الإنكشاري رجولته ويلحق بالخدمة الداخلية في القصر السلطاني .

وكان رئيس الإنكشارية ويطلق عليه أغا الإنكشارية أو بالمصطلح التركي (إني شوية أهلي) من أبرز الشخصيات في الدولة العثمانية إذ كانت القوات العسكرية التي تحت قيادته تعد أقوى أداة عسكرية في سلاح المشاة تحت تصرف السلطان^(١) ، كما أنه كان يعمل أيضا مستورا للسرعة في استاينول وبجانب ذلك فإنه كان يحكم منصبه عضوا بمجلس الدولة ، كما كان مقدما على كل قرار للدولة^(٢) .

وترجع أهمية الإنكشارية إلى عوامل عدة منها : كفاءتهم القتالية ، وشجاعتهم المفرطة ، ووفائهم العديدة ، وضراوتهم في المعارك الحربية ، فكانوا يشكلون قلا حربية أساسيا في الحروب التي خاضتها الدولة العثمانية فلما أو هجوما سواء في آسيا أو أوروبا أو إفريقيا .

وقد ترجع ضراوة الإنكشارية في القتال وخشولتهم وجفاء طبائعهم إلى الصرامة التي تسعت بها تربيتهم وخاصة أنهم كانوا يقتلون جو الأسرى التي تترك فيهم شتى مشاعر الحب والمطف والمدان فقتلوا مجرمين من جميع الميادين الإنسانية التي تساعد على تهذيب الطباع ، وتركز اهتمامهم على الاستئصال في الحروب واسترخاض الموت . وكان الإنكشارية غالبا ما يأخذون أماكنهم في طليعة الجيش وقلبه في أثناء المعارك وكان السلطان يتخذ مكانه خلفهم وإلى جانبه يترك الحروب . وإلى جانب ذلك كان الإنكشارية يتمتعون بالسلطان في تملكته وخصوصا أن بعضهم كانوا يملكون الحرس السلطاني^(٣) وقد جعلهم ذلك يشعرون بمكانتهم .

وبقيت كتائب الإنكشارية سندا وعونا للدولة في فتراتها ومواجهة أعدائها ، واستطاعت الدولة عن طريقهم أن تملأ في سواها التوسع ومواجهة أقوى جيوش

١- قسنتاري : المراجع السابق ص ٤٨٢ .

٢- هانتون جب وهارولد بورن : المجتمع الإسلامي والغرب - ترجمة أحمد عبد فرحم بمسقطي وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٧١م ص ٨٩ .

٣- قسنتاري : المراجع السابق ص ٤٨٢-٤٨٣ .

أوريا - ثم عاقبت الأمور وأسا على عقب بعد أن استشرى نفوذ الانكشارية وداخلهم
الغرور ، وأخذوا يتسلطون على أمور الدولة ، ويزجون بأنفسهم في أمر تعيين السلاطين،
وتتولى تمردهم بعد ذلك فصاروا تتلا كثيرا على كامل الدولة ، لدرجة أن بلغ بهم الأمر
لهم لا يسمحون للسلطان الجديد بارتقاء أريكة الحكم قبل أن يخلق عليهم عطفاً التي
الطلق عليها كلمة البغشيش . وإلى جانب ذلك بدأت ظاهرة تدخل الانكشارية في المسائل
السياسية منذ عهد السلطان بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢ ، ويظهر تمردهم على السلطان
سليم الأول في أثناء محاربه للصويين في فارس ومطالبتهم له بوقف العمليات الحربية
بحجة الاكتفاء بما حققوه من انتصارات فاضطر إلى العودة إلى بلاده استجابة
لضغوطهم^(١)، وتكررت حالات التمرد بعد ذلك . وإلى جانب ذلك تمتدوا في مطالبتهم غير
المشروعة كلما لسوا من السلطان الحاكم ضعفاً ، ووصل بهم الأمر أنهم كانوا يعزلون
السلاطين والسوداء العظام والوزراء وكبار رجال الدولة ، ويقتلون بعضهم ، ويتدخلون
في تعيين غيرهم في المناصب التي تتلو بقتل أو عزل شاعليها .

وإذا كانت مخاطر الانكشارية تقاماً عندما قررت الحكومة العثمانية تطوير جيوشها
بعد الهزائم التي حاصرت بها وذلك بالتدخل للنظم العسكرية الحديثة التي أخذت بها الدول
الأوربية في جيوشها ، فقد عارض الانكشارية التدخل مثل هذه النظم معارضة شديدة،
وكانوا أكبر عقبات الإصلاح العسكري في الدولة العثمانية ، لاعتقادهم أنها ستؤدي إلى
إسماجهم أو ذوبانهم في لفرق العسكرية الحديثة ، وبدأوا في إعلان لمردهم وعصيتهم في
وجوه السلاطين ، فاحتلوا السلطان سليم الثالث في عام ١٨٠٨ لإسراؤه على إدخال للنظم
العسكرية الحديثة بين صفوفهم ، ونجحوا في إبعاد عدد من السلاطين على إلغاء هذا
النظام الجديد ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتدت شذور الانكشارية إلى المدنيين
فاحتكموا بيوتهم وفتحوا أراضيتهم ، وعسدوا إلى حرق الأحياء التي تقف أسامهم ،
وهاجموا المحلات التجارية ، وبعد أن فاض الكيل وأصبح الانكشارية أشد عناصر الفساد
في جسد الدولة ، رأيت الحكومة إبعادهم عن العاصمة وأمرت بتوزيع قواتهم على الحدود،
كما سمحت لهم بالزواج لتدخلهم بمشكلات الحياة الزوجية ، ولأنكس لهم بممارسة بعض
الحرف والاشتغال بالتجارة في أوقات السلم ، ومع كل ذلك قد ظل الانكشارية مركز
قوة^(٢) . وأما تولي السلطان محمود الثاني العرش ١٢٢٣هـ (١٨٠٨-١٨٣٩م) لترك أنه
أن يتمكن من وقف طغيان الانكشارية إلا بإصلاح أحوال الجيش ، فجمع أعيان الدولة
وكبار ضباط الانكشارية في بيست العنقسي وقسام المصدر الأعظم بسليم

١- جلال يني : العهد الإسلامي الحديث والمعاصر ج١ : الانكشارية ١٩٨٢ من ٥٨٦-٥٨٧ .

٢- كشكاري : المرجع السابق من ٤٩٤-٥٠٢ .

أحمد باشا خطيباً فبين الحالة التي وصلت إليها الإنكشارية من الضعف والاضطراب والقصور في فنون الحرب الجديدة ، وبين ضرورة إصلاح النظم العسكرية الحديثة . ثم ألقى الملقى بجواز العمل بمقولة المعارضين له ، وقد وافق كبار ضباط الإنكشارية على إدخال النظم العسكرية طامعاً ولطمعوا خلاف ذلك إذ سرعان ما ثاروا عند تنفيذ هذه الإصلاحات وخاصة أنها ستقضي سلطاتهم ، فجمع السلطان العلماء وأخبرهم بنية التمرد فتصهروا على إعادة الإنكشارية ، لذلك استعد للقتالهم ، وأمر بأن تحيط المدفعية بميدان (إت ميداني) الذي اجتمع فيه العصاة وأن توجه قذائفها عليهم ، وقد حاول الإنكشارية الهجوم على المدافع ولكنها أحرقتهم بلهب نيرانها فهربوا إلى كتلتهم طلباً للنجاة فأحرقت وهدمت فوقهم وبذلك قضى على قوتهم بصفة نهائية ، وكفى معهم على فرقة البكتاشية الصوفية التي كانت قسائدهم ، وحضر مرسوم سلطاني بإلغاء غلة الإنكشارية ومالهمسهم واصطلاحاتهم وإعدام كل من تبقى منهم وكان ذلك في التاسع من ذي القعدة (١٢٤١هـ/١٨٢٤م) . وبذلك انفتح الطريق لبناء النظم العسكرية الحديثة في الجيش العثماني وأزيلت الحواجز أمام دخول الخبراء الأوروبيين لتطويره .

والسؤال المطروح: هل كان القضاء على الإنكشارية في صالح الدولة العثمانية من ناحية القوة العسكرية أم كان سبباً في إضعافها وازدياد التخلل الأجنبي في ممتلكاتها. الواقع أن القضاء على الإنكشارية قد أتاح الفرصة للأوروبيين وغيرهم للاحاق العديد من الهزائم بالدولة العثمانية التي بنت أمامهم شبهة عارية وجوههم من الفرية منها وكان من الأذى بالسلطان العثمانيين القضاء على الأجناد التي أهدت الإنكشارية وليس القضاء على الإنكشارية كنظام والدليل على ذلك أنه بعد القضاء على الإنكشارية بسنوات قليلة تمكنت روسيا من الاستيلاء على العديد من المناطق والأقاليم التابعة للعثمانيين وأجبرت السلطان على توقيع معاهدات مهينة منها إجباراً في عام ١٨٢٩ على توقيع اتفاق لتفتح به أبواب الدولة العثمانية أمام الروس من ناحية القوقاز والدانوب ، ومن ناحية أخرى فقد تم هزيمة الدولة العثمانية في معركة نغارين البحرية في عام ١٨٢٧م وتململ أسطولها، واضطر السلطان إلى الموافقة على استقلال اليونان ، كما نجحت فرنسا في الاستيلاء على الجزائر في عام ١٨٣٠م ، هذا إلى جانب قيام محمد علي بمملكته على بلاد الشام في عام ١٨٣٠م وتجاهه في إلحاق العديد من الهزائم بالعثمانيين وإعلان داود باشا والي العراق العثماني على الدولة .

١- علي حسن : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م من ١٣٤-١٣٥

ومما سبق يتضح أن الاكتشارية كانوا في بداية نشأتهم قوام الجيش العثماني وعماده ، وأنهم شاركوا بشكل أساسي في الدفاع عن الدولة وخلال فتوحاتها ، وبذلوا النفس والنفيس في سبيل إعلاء شأن الإسلام ، ولكن ومنعهم سرعان ما تغير قذب الضعف والفساد في عقائدهم ، وولفوا حجر عثرة أمام كل المحاولات الرامية إلى تحديث الجيش العثماني كما تحولوا إلى عصابات مسلحة هدفها الاعتداء على النظام ، والتدخل في سياسة الدولة العليا وترويع الأملين والاعتداء على حرماتهم ، مما دفع بالسلطان إلى القضاء عليهم .

الموضوع الرابع

العثمانيون والعالم العربي

● العثمانيون بين قوتين

في بدايات القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي ترجم العالم الإسلامي ثلاث قوى متميزة وهي: دولة المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن ، والدولة الصفوية في فارس ، والدولة العثمانية في الأناضول والبلقان . وقد استكملت أن تمد سيطرتها إلى المجر .

ولما كانت كل قوة من هذه القوى تخشى على نفسها من تعاضد القوتين الآخرين فقد صمد كل طرفاً من هذه الأطراف على إيجاد صليبة توازن مع الطرفين الآخرين حتى لا يشكل أحدهما خطراً عليه . وعلى الرغم من ذلك فإن الصدام بين هذه القوى كان متوقفاً ، وكان الحذر المشوب بالقلق يتدب كلاً منهم تجاه الآخر . وانتهى الأمر بتحول الجهاد الإسلامي ضد الصفاري إلى حروب فيما بين المسلمين أنفسهم ، وفيما يلي نعرض لهذه الأطراف الثلاثة ، والصراع الذي حدث بينهم وانتهى بانتصار العثمانيين .

أولاً: الصفويين :-

ينتسب الصفويون إلى الشيخ صفي الدين اسحق الأديلي^(١) (٦٥٠-٧٣٥هـ) (١٢٥٢-١٣٣٤م) وقد بدأ نفوذهم يبرز في إيران خلال القرن التاسع الهجري وكانوا يقولون بامتداد نسبهم إلى الحسين بن علي بن أبي طالب^(٢) من جهة ، وإلى يزديجرد الساساني من جهة أخرى ، وقد أسس أحدهم وهو إسماعيل الصفوي دولتهم في أذربيجان عام ٩٦٠هـ/ ١٥٠٠م ثم بسط نفوذه في شروان والعراق والأوزبك وفارس واتخذ من تبريز^(٣) عاصمة لدولته .

١- أرنج في أذربيجان .

٢- إسماعيل تلك الفترة د. ربيع جمعه : إنشاء إسماعيل الكبير ، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨٠ .

٣- تقع في شمال غربى من إيران بالقرب من الحدود التركية .

وما إن تم لإسماعيل الصفوي بسط نفوذه على إيران كلها حتى كشفنا عن حزمه على إخلاء شأن الشيعة^(١) فأعلن فيه سلب الإمام السابع^(٢) . كما أعلن أن المذهب الشيعي هو دين الدولة . ولكن تحقيق أهدافه في تحويل إيران إلى المذهب الشيعي رأى أن القوة السياسية يجب أن تساعدها قوة عسكرية مطلقة تربطها به وشائج عائلية متينة تجعلها مستعدة للاستماتة في الدفاع عن معتقداتها ، ومن هنا اعتمد على القوى العشائرية المتعصبة للمذهب الشيعي حتى صارت دعامة قوية وسندا للمسيرة الصفوية^(٣) . وجازب إسماعيل الصفوي أهل السنة ، وكان أهل السنة أكثرية سكان البلاد في ذلك الوقت^(٤) وراح يجعلهم قسراً على الانخول في المذهب الشيعي ومن أجل ذلك لم يتردد في إلقاء مدن بأسرها والقضاء على العلماء والأعلام ورافقات ووجدانها حين يرفضون الانحياز لدعوتهم^(٥) .

وفي هذا الوقت الذي ظهر فيه الصفويون كان البرتغاليون يلقنون حول أفريقية وينشغلون المحيط الهندي ، ولما اتصلوا بشيعة إيران لم يجدوا صعوبة في التعاون معهم من أجل القضاء على الأساطيل العربية ، واحتلال سواحل الخليج ، ونسقية الحكم العربي أينما وجد ، وغزو الجزيرة العربية^(٦) في تطوير معاهدة البرتغاليين لقضاء في القضاء ثورة مكران^(٧) .

١- د. أحمد محمود السدائي تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وجنارنها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص ١٥٢ .

٢- الإمام السابع عند الاسامية الجعفرية هو موسى الكاظم .

٣- عبد العزيز نواز : شعوب الإسلامية ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٣ من ٢٢٠-٢٢١ .

٤- أرنولد توينبي تاريخ البشرية ج٢ ، ترجمة نقلا زيادة ، بيروت ، الأهلية للنشر ١٩٨٨ من ١٨٨ وأيضا د. عبد الله محمد غريب وجاء دور العموس - الأعداء التاريخية والعقائدية والسياسية للثورة الإيرانية ، القاهرة ، دار الجول للطباعة ١٩٨٦ ص ٨٠ .

٥- السدائي : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٦- كان من أهداف غزو الجزيرة العربية قيام البرتغاليين بالاعتلاء على مكة والمدينة ولكن الله حسم بينه الدرام ومثري رسوله الأمين .

٧- تقاضون الشار لاجي ، توريس : الكويت في مثل الخليج ، الكويت ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ص ٦٠ .

٨- أمين سعيد : الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة ، بيروت ، دار الكتاب العربي ص ٢٩ .

ولما كان العشاقيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السني فقد وجدوا في الدعوة الصفوية الشيعية تحدياً أساسياً لهم ، وخطرنا على مستقبلهم وخصوصاً أن الشاه إسماعيل الصفوي بدأ يمد نفوذه على العراق وعلى مناطق الأوزبك^(١) وشرق الأناضول ، ويرسل مئات الدعاة لنشر المذهب الشيعي هناك^(٢) حتى لقي هذا المذهب استجابة واسعة في هذه المناطق^(٣) . ونتيجة لذلك غير السلطان سليم الأول - الذي تولى العرش بتأييد من الإنكشارية باعتباره منفذاً للإمبراطورية العثمانية من الخطر الشيعي - خطة أسلافه بالتوسع شطر شرق أوروبا إلى جنوبي الأناضول لمقابلة الصفويين ووقف المد الشيعي تجاه بلاده ، فأعلن سليم الأول الحرب على الصفويين ، وزحف بجيوشه من مدينة أدرنة في ٢٢ من المحرم ٩٢٠ هـ ، الموافق ١٩ من مارس ١٥١٤م فاصداً مدينة تبريز ، ولكي تتلك فوات الشاه إسماعيل الصفوي قوى العثمانيين بذلك لتتجهز أسلحتهم في محاولة لاسترجاعهم^(٤) . واستمر الصفويون في تقهقرهم حتى دارت المعركة الحاسمة بين سليم الأول والشاه إسماعيل الصفوي في وادي تشاتران (جبالديران) في ٦ من رجب ٩٢٠ هـ/ ١٥١٤م وانتهزم القوس وانتصرت الجيوش العثمانية^(٥) ، بعد معركة فاصلة وسفها لمد المعاصرين بقوله كان بينهما ذلك وقعة مهولة تشيب منها القلوب ، وتذلل القلوب عند سماعها من كل دابة وقاص ، فصيرت الرؤوس عن الأجساد طائفة ، وطفت^(٦) العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أورى أدماع منهم كالمسيل .. فبا لها من ساعة مهولة ، لا ترمى لله ولا رسوله ، أوفعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولاً وقتل من عسكره ما لا يحصى عندهم ... فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة .. قام على عسكره وحضهم على القتال .. فأكسرت الصفوي وولى

١- كان الأوزبك يمكنون باله ما وراء النهر التي تعدم أفغانستان وبلخاري وسمرقند .

٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ العثماني ، بيروت ، دار الشروق . الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٩م من ٧٧ .

٣- عبد العزيز قنقري: الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها جـ١ ، القاهرة الإيجو المصرية من ١١٩ .

٤- محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان حقي ، بيروت ، دار الفنون ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م من ١٩٠ .

٥- عبد العزيز نوار: تاريخ العراق العتيق من نهاية حكم دود باشا إلى نهاية منحت باشا ، القاهرة ، دار الكتب العربي ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م من ٦ .

٦- كلمة صافية بمعنى فرت .

موزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عسكر الروم^(١) .
 وفر الشاه بعد أن أسبلته بجروح ، ووقع كثير من قواده وجنده في الأسر وأسبوت
 أيضا إحدى زوجاته ، وتحدث المدينة ليرادها وتدخلها السلطان منصورا في ١٤ من رجب
 ٩٢٠ هـ واستولى على خزان الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية^(٢) وأقطع رؤوس من قتل من
 أمراء أعدائه وأرسلها إلى بلاده فطافوا بها هناك^(٣) ، ولكن مسلما لم يشأ أن يتابع تقدمه
 إلى ما وراء نهر دجلة نظرا لامتناع الأكشارية عن تقديم لاشكاد البرد ، وصعوبة المسالك ،
 وقلة المؤونة اللازمة قتل واحدا إلى بلاده مكثفا بكبح جماح القروس^(٤) ، وخشية ثورة
 الأكشارية عليه .

- ونتيجة للمعارك السلطان سلم مع الصابرين يتضح ما يلي :
- ١- نجاح العثمانيين في الحد من نشر المذهب الشيعي في الأناضول والبلاد
 العربية حيث منعوا زحف المذهب الشيعي على الشرق العربي الأسيوي ومصر ،
 واستأصلوا هذا المذهب من الأناضول^(٥) .
 - ٢- استعمار أوروبا لهذه الخلقات ومحاولتها التسلل إلى الشرق الإسلامي ، ومنها
 نفوس بالأسلحة الحديثة ليحاربوا بها عثمانيين بغية الحد من زحفهم المتواصل
 على أوربا^(٦) .
 - ٣- استيلاء العثمانيين على ديار بكر ، ومد سلطانهم على الأجزاء الشمالية من
 العراق .
 - ٤- هز كيان الموالين لإيران وزعزعة نفوذهم^(٧) .

- ١- محمد بن أبيان : بتاريخ الزهور قس ، وبتاريخ القصور ج ٤ ، القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب
 ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٩ م من ٤٠٦-٤٠٣ .
- ٢- محمد قزويني : المرجع السابق من ١٩٠ .
- ٣- ابن أبيان : المصدر السابق من ٤٠٣ .
- ٤- تواتر : المرجع السابق من ٦ .
- ٥- كشتاري : المرجع السابق ج ١ من ٢٤ .
- ٦- قسطنطيني : المرجع السابق من ٢٥٢ .
- ٧- مجموعة الأساقفة : العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣ من ٥٦٨ .

ثانياً : الأتراك العثمانيون :-

ينتمي العثمانيون الأوائل إلى إحدى عشائر قبيلة الغز التركية ، والتي تعرف باسم قابي ، وقد هاجرت هذه القبيلة من المشرق إلى الأناضول في القرن الثالث عشر الميلادي هرباً من جنكيز خان ووصلت إلى آسيا الصغرى وبعض شواطئ البحر الأسود وأكرمها حيث التجأت إلى السلاجقة المسلمين قسومهم وقطعهم أراضي لمواشيهم .

وكانوا يعتمدون في حل ما يواجههم من مشكلات على زعيمهم عثمان الذي ولد على حسب الروايات التاريخية في عام ١٢٥٨م ، ولما كانت الحروب الصليبية قد دارت رحاها في ذلك الوقت فقد تلوع عثمان مع بعض رجاله للنصرة بعض سلاطين السلاجقة ، وأظهر شجاعة وحسن إدارة فاستدعى ذلك مكافئته وتقديره ، فعين حاكماً على إحدى المقاطعات ، وبعد وفاة السلطان السلجوقي أعلن عثمان استقلاله ١٢٨١ ، وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الأيلخانيين تمكنت الإمارة من استقطاب عدد من الإمارات التركية المسلمة في الأناضول وهي الإمارات الثلاثة على الناحية دولة السلاجقة واستأنفت توسعها غرباً فاجتهدت منذ سنة ١٢٤٥م إلى أوروبا الشرقية فاستولت على أجزاء كبيرة منها وتوجت أعمالها العسكرية في عهد محمد الفاتح بفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م .

وما أن انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الأناضول واليونان وشبه جزيرة القلستان وجزائر بحر إيجه وجزيرة في جنوب إيطاليا ١٦١٩ .

وفي عهد السلطان سليم الأول ١٥١٢-١٥٢٠م اتجهت الفتوحات نحو الشرق ، بعد تحذيرات الشاه إسماعيل الصفوي لأهل السنة والجماعة ، ففتح ذلك سليماً إلى العمل على مد سلطانه إلى الأناضول وبلاد الشام . ولم يكن السلطان سليم يرى كبير فرق بين الشاه إسماعيل وجنده ، وبين أي من حكام أوروبا في عداوتهم للإسلام ، خصوصاً أن الشاه رسم سياسته التوسعية على أسس التحالف مع البركانيين . ولما كان العثمانيون يعدون أنفسهم حماة المذهب السني فقد اتخذت عملياتهم العسكرية ضد الصفويين شكل التدمير والقسوة (بالقوة) ١٦١٩ ، وانتهت بانتصارهم في جالديران ونخول تبريز عاصمة الصفويين ،

١- ميخائيل مشالة : مشهد الحان بحرات سوريا ولبنان ، القاهرة ، ١٩٠٨م ص ٦٩ .

٢- العراق في التاريخ من ٥٦٦-٥٦٧ .

٣- كرم الطيبي : دمشق بين عصر المماليك والصفويين ١٠٦-١١٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ، منشأة للترقيم ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص ٣٦٨ ..

وزراعة الفول السوداني في المنطقة ، وهاكيان الموانئ لهم^(١) . وبعد خروج السفويين من حبة الصراع بدأ السلطان سليم بوجه جهوده لاختصاص الممالك ، واعداد العدة لتوحيد الجبهة الإسلامية .

ثالثا : الممالك : -

جلب الممالك من مناطق عدة من أبرزها شبه جزيرة القرم وتركستان وبلاد القوقاز والقوقاز وآسيا الصغرى وفارس والبحر الأسود^(٢) ، وكان ذلك بطريق الشراء من أسواق الخفاسة^(٣) .

وكان تلك الممالك نجم الدين أيوب أول من اشترى الممالك بشكل مكثف واتخذ منهم حندا بأعداد كثيرة ، وبعد وفاته أفلت زمام الأمور من الأيوبيين وتمكن الممالك من السيطرة على زمام الموقف والقضاء على توران شاه الأيوبي الشرعي للحكم . وقد حكم الممالك العديد من البلدان الإسلامية وبخاصة مصر والشام والحجاز ، واستداعوا حماية ديار الإسلام من المغول الذين تمكنوا من القضاء على الخلافة العباسية والاستيلاء على بغداد في عام ٦٥٦ هـ ، كما تمكنوا من تثبيت أمام قوى السليبيين الذين حكموا العديد من بلاد الشام لفترة ثم أخرجوهم منها .

ونتيجة لحركة الكشوف الجغرافية وتحويل طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح بدأت أحوال الممالك في التدهور والضعف بشكل مكن البرتغاليين من هزيمتهم في معركة "دير البحرية" في عام ١٥٠٩م والاستيلاء على بعض المناطق الاستراتيجية في البحر الأحمر وتهديد الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز وفي خلال ذلك كانت العلاقات المعنوية مع المسلمين جيدة ، لدرجة أن قام العثمانيون بمساعدة الممالك لتقوية أسطولهم البحري حتى يتمكن من مواجهة البرتغاليين ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا فبعد انتصار السلطان سليم العثماني على السفويين بدأ نسي التمسك بالممالك حيث

١- العراق في التاريخ من ٥٦٨ .

٢- لتفصيل نظر أبو القيس القلقشادي صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج ٥ ، القاهرة ، ١٩٢٢ من ٤٤٧ .

٣- كان بالقاهرة أسواق لهذا الرقيق تسمى في خان الخليلي ، وكان للسلطان جمال يقتنون لهم ما يناسبهم من الخدم كما كان الأمراء والوزراء والقضاء يقتنون من شايخا منهم ثقا وكثورا فيلبصون بالخدمة منهم إلى المدارس يقتنونهم لرسول الدين والخدم ثم ياربونهم على فنون الحرب بقيادة الجند .

دمر إمارة "البيستان" الواقعة تحت حمايتهم ، وحشد قواته في مواجهتهم وخاصة أنهم كانوا يلبثون التأثيرين عليه ومنهم الأمير حم ابن السلطان محمد الثاني الذي كان يرى نفسه أحق من السلطان سليم بالحكم ، ورفضوا تسليم الثلاثين إليهم .

وبعد أن أرسل السلطان سليم الأول في يوليو ١٥١٦م برسالة مهيبة إلى السلطان قنصوة الغوري يطلبه فيها بأن يلقاه عند مرج دابق ، أخذ الغوري في الاستعداد لملاقاة العثمانيين ، وطلب من مماليكه الاستعداد للمعركة ومن قوله في هذه الشأن "والذي منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراكم لتثقل إذا سافرت في التجريد" ٧٧% كما طلب من الخليفة العباسي في مصر محمد المتوكل الاستعداد لتسفر معه .

ومضى الغوري على رأس جيشه إلى بلاد الشام ، وأصاب عنه طومان باي في مصر ، ووصل الغوري إلى حلب في يوليو ١٥١٦م ، وحدث قتال شديد بين الطرفين انتهزم فيه العثمانيون في بداية الأمر لدرجة أن هم السلطان سليم بالهروب وخاصة بعد أن قتل من صاكره ما يزيد عن عشرة آلاف (١٧) ولكن سرعان ما لعبت الخيانة دورها فقد أطلق "خير بك" نائب حلب - الذي استطاع السلطان العثماني رشوته وضمه إلى صفوفه - بعض التفاعلات بين صفوف المماليك بهدف إحداث الفرقة بينهم ومنها أن السلطان المملوكي أهد مماليكه الجبلان عن قلب المعركة ، وترك الجنود القرائصة وقودا للحرب ومنها أن السلطان الغوري قتل في أثناء المعركة قتليلت الأفكار ، وشاع الذعر في صفوف المماليك لدرجة أن اضطربت أحوالهم وأخذ بعضهم في الفرار ، ولم ينجح الغوري في السيطرة على الموقف وأُكلت منه لزام ونتيجة لعدم تحمله لخدمة الهزيمة انقلب من فوق جواده على الأرض فاقع الوعى (١) وداسته ممالك خيول العثمانيين المتدفعة وراء المماليك المتقهقرين ، فلما رأى ذلك أسراؤه القريبون منه غشوا أن يقع في أسر العثمانيين فقبضوا رأسه عن جمده ، ويطوفوا بها في بلادهم ففروا قتله بأنفسهم فقطعوا رأسه ورموها في جب وأخذوا جثته ولقوها في نهر قريب (٢) .

١- لهذه الإمارة أسماء أخرى منها ذو القادر .

٢- تتفصيل نظر ابن الجوزي: بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٣ ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ببولاق المطبعة الأولى ١٣١٢هـ ص ٥ .

٣- ابن الجوزي : المصدر السابق ج٣ ص ٤٧ .

٤- ابن زيل : تاريخ السلطان سليم مع قنصوة الغوري ، جزء ١ ، مطبوع بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٨ .

٥- ابن زيل : ص ٥٠ .

وانتهت معركة مرج دابق التي لم تستمر سوى يوم واحد وأذهب مشحيتها الأكراد من الطرفين بتخريب الأبناع في العالم الإسلامي فاستولى العثمانيون على بلاد الشام وبدأوا في التأهب للسيطرة على مصر .

ويرجع أسباب هذا الانتصار إلى عوامل عدة من أهمها :

١- تفوق لقوات العثمانية في سلاح المدفعية الذي لا يمتلكه المماليك .

٢- قيادة خير بك نائب السلطان العثماني في حلب .

٣- الوقعة بين المماليك الجلبان والقرائصة عند احتدام المعارك .

وكان دخل السلطان سليم حلب دون مقاومة ، فأمن أهلها على أرواحهم وأولادهم وأموالهم^(١) ، كما دخل دمشق وغيرها من المدن السورية .

وعادت فلول الجيش المملوكي إلى مصر وهم في أسوأ حال فكانوا معزولي الثياب، نحيلي الأجسام - وبعد أن وصل نيا الهزيمة إلى القاهرة اجتمع المماليك لاختيار سلطان جديد يتولى أمور البلاد - واستقرت أمور البلاد في النهاية على اختيار "طومان باي" . ولما تردد طومان باي في الأمر خشية العذر به قام الأمراء بالقسم على المصحف بألا يغدروا به أو يثيروا قلقا ضده^(٢) .

وبعد أن علم "طومان باي" بإحلف السلطان سليم على مصر ، ووصله إلى غزة نادى المماليك بالخروج من غير تأخر ، فخرج ليعسكر مسرعين ، ووقعت معارك عديدة انكسر فيها المماليك ثم أخذ طومان باي في إعادة تجميع صفوفه عند اريدافية (بالقرب من العباسية) . ولما أقيمت المعارك العنيفة لقي معها المماليك في معركة مهولة انتهت بهزيمتهم والكسارهم^(٣) .

ودخل العثمانيون القاهرة بالسيف حنوة في يوم الجمعة الموافق ٢٣ من يناير ١٥١٧م وخطب السلطان سليم على منازرها . مع ذلك لم يستسلم طومان باي فقد أخذ يعد لعدة للمقاومة وللثبات مع العثمانيين في عدة معارك ولما لم يتمكن من الظفر بهم اجتمعى عند أحد مشايخ العريان ولكن الشيوخ الذي اجتمعى عدده تذكر له وسلمه للسلطان سليم فأمر بإعدامه .

١- قرطبي : أخبار الدول والكر الدول ، القاهرة ، مطبوع بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦٦٦ من ٩٩ .

٢- ابن نيس : القمطر السابق ج٣ ، ص ٦٩ .

٣- ابن نيس : القمطر السابق ج٣ ، ص ٩٧ .

ويذكر ابن أبي شيبة أن طومار بن أبي طالب من الناس في أثناء ذهابه إلى المشقة أن يقرأ عليه الفاتحة ثلاث مرات ثم يمسك يده ويقرأ الفاتحة ثلاث مرات وقرأت الناس معه ثم قال للمشاعلي أصل شغل... فلما شق وطأ وجهه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة وكثر عليه الحزن والأسف^(١).

وبإعدام طومار بن أبي تكتل سلطنة المماليك على مصر ، كما اتهمت من قبل على الشام بمقتل الغوري ، وخضعت البلاد حوالي أربعة قرون تحت السيادة العثمانية .

لما من الحجاز فقد خضعت سلباً للعثمانيين ، فقد أرسل الشيرك يركات إليه أباي إلى السلطان سليم بالقاهرة لينقله بالتسارئة على المماليك ويحكم مصر وليطعن التوابع للعثمانيين فبثله السلطان سليم على شراقة مكة ، وجعله المتصرف في أمورها ، كما أنشأ له أمور المحبة بمكة أيضاً^(٢).

نظام الحكم العثماني في العالم العربي

ارتكز نظام الحكم العثماني في العالم العربي على أربعة أمور أساسية هي :

- ١- الإبقاء على أحوال العالم العربي الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والتركيبية السكانية كما هي قبل فتح العثماني لها ، فلم تحاول الدولة العثمانية مثلاً مسيح أهل الولايات العربية التابعة لها بالصيغة العثمانية أو يربطهم برباط الحضارة العثمانية^(٣) ، كما لم تحاول فرض اللغة التركية عليهم بدلاً من العربية .
- ٢- عزل العالم العربي عزلاً يكاد يكون تاماً عن التيارات الاقتصادية والسياسية العالمية بحيث لا يتأثر بها بدور في العالم الخارجي .
- ٣- كان المجتمع في نظر العثمانيين عبارة عن قسمين : الأتراك وهم الحكام الذين يستوعبون بكافة الامتيازات ، والرعية وهم المحكومون الذين يتحكم عليهم خمسة الحكام والاستجابة لمطالبهم .

١- ابن أبي شيبة : المصدر السابق ص ١١٤ .

٢- ابن أبي شيبة : المصدر السابق ج ٢ ، ص ١٢٤-١٢٦ .

٣- محمد رفعت رمضان : على يد الكبير ، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٠ ص ٦ .

وقد أدى تمزق الطبقة الحاكمة التركية عن الأهالي وتعالى أترابها عليهم إلى ضلالة تأثير الحكم العثماني^(١) .

٤- إن فكرة الحكم عند العثمانيين كانت ترتكز على أن للدولة وبلدات محددة ، وممفوزاتها لا تخرج عن المحافظة على سيادتها ومصالحها في هذه الولايات أما عن الخدمات العامة مثل التعليم والصحة فاتها لا تدخل ضمن مسؤوليتها أو اختصاصاتها ، ومن هنا تحددت مهام الدولة العثمانية فيما يلي :

- ١- الدفاع عن الولايات التابعة للدولة وحفظ الأمن فيها .
- ٢- جمع الأموال وإنشاء إدارة مالية خاصة بذلك .
- ٣- إقامة نظام قضائي للفصل في المنازعات التي تحدث بين الأهالي .

وعلى هذا النحو ارتكزت فلسفة الحكم العثماني على عدة أنظمة كان أهمها :

الوالي - الديوان - حامية العثمانية - المحميات المحلية^(٢) ، وأيضا على تعرض

لذلك :

أولا : الوالي :-

كان السلطان العثماني يعين والي بصحته فاقبأ له في الولاية التي يحكمها وكان يلتزم بعدة ألقاب منها لقب القائد ، وكانت إليه السلطان المدنية والعسكرية ومسؤولية جمع الضرائب ، فكان على رأس الجهاز الإداري وكان يقود الجيوش بنفسه^(٣) ، ويبلغ الرعايا بأوامر السلطان ويقوم بإرسال المقررات المفروضة على ولايته إلى الخزنة السلطانية ، ومع كل ذلك فإنه انظر إلى السلطان في ولايته وعدم ثقة فيهم وخشيته من الانفصال بولاياتهم عن الدولة العثمانية ، فقد أحاط السلطان بولاة ، جواسيسهم وعيالتهم ، وأخذوا يتلصقون منهم العديد من اختصاصاتهم ، فتركزت التوابع المالية في يد القنطرة الذي كان يعين رأسا من القسطنطينية ، وتركزت التوابع الإدارية في يد الكنتدا أو الكها الذي كان يمينه يتم بالقسطنطينية ، وكانت السلطة القضائية تنفرد بها قضاة القضاة المنفسي السدي كانت ترسله القسطنطينية ، وإلى جانب

١- محمد آيس : حضارة مصر الحديثة ص ١٤٤ .

٢- محمد عبد المنعم الرافد : لغزو العثماني لمصر ونتائجه على الوطن العربي - الإسكندرية - مؤسسة شباب الجامعة ١٩٦٨ من ٢٦٨ .

٣- ليرة المداح : العشاق والامام القس محمد في اليمن ، جدة ، مكتبة لهامة ١٩٨٢ من ١٤٨ .

مهمته الرئيسية مراقبة قرارات الوالي والمقرر في الشؤون الاقتصادية والإدارية ، وتنظيم شؤون القوات العسكرية .
ونتيجة لنشأة الدولة العثمانية من تفرّد ولائها عليها والاستقلال بولاياتهم جعلت من أعضاء الديوان حيواناً لها على الولاية يتبعونها بتصرفاتهم لمنع الولاية من إساءة استعمال سلطتهم .

ثالثاً : الحامية العثمانية :-

هي قوة عسكرية عثمانية كانت ترتبط في الولايات وقد أسست هذه الحاميات في أعقاب الفتوحات العثمانية للوطن العربي ، فبعد أن فتح السلطان سليم الأول مصر تركه بها حامية تتألف من حوالي ثلثي عشر ألف جندي يتكون منها ستة أوجهات على رأس كل منها آغا ، وكانت هذه الحامية تتكون من أخلاط مختلفة من العسكر (١) .
وكانت مهمة الحاميات : حفظ النظام والدفاع عن الولايات ضد أي خطر خارجي ، وقمع التمرد ، كما كان لها اختصاصات سياسية وإدارية ؛ فكان رؤسائها يشاركون الوالي في الحكم كما كانوا يحضرون اجتماعات الديوان ، وكانت لهم الكلمة للسموعة . وإلى جانب ذلك كانوا يقومون بتوصيل الخراج إلى الأمشقة وكثيراً ما حدثت الخلافات بينهم وبين الوالي ، وكان التفرق في الفترة الأولى من الحكم العثماني لوالي ، ثم استطاع رجال الحامية بعد ذلك أن يسيطروا على زمام الأمور .
وعندما دب الضعف في الدولة العثمانية ضعفت الحاميات في الولايات وقصد أمرها ، ولم تعد صالحة لاستتباب الأمن ، بل تحول أفرادها إلى السلب والنهب والألمة على ذلك متعددة لذكر منها أن الحامية في بلاد الشام كانت من أهم أدوات التخريب ، فقد خرج جنودها عن اختصاصاتهم وكثيراً ما اعتدوا على الأهالي وتطاولوا على أموالهم وأعراضهم وكثرت شروخهم (٢) .
وفي صحن شار الأهالي منذ تسلط الحامية العثمانية وخدعها بأميرهم عامر الطاعري ، فاضطرت الأمشقة إلى أن ترما أسطولا بحرياً لم يتمكن من السيطرة على الموقف إلا بصعوبة (٣) .

١- للتفصيل انظر عراك : المراجع السابق ص ٢٩٦-٢٩٧ .

٢- محمد كرد علي : المراجع السابق ص ٢٢٥ .

٣- فزوقي أنطاك : الحكم العثماني في اليمن ، بيروت ، دار العودة ١٩٧٩ ص ٢٠ .

وفي تونس أمكن الجنود عصبائهم ، وهددوا النظام باعتنائهم على الأرواح والممتلكات .

وفي مصر وكنت الحامية العثمانية إلى حياة الاستقرار وانضمت إلى الشعب المصري ، وتركزت حولها العسكرية لدرجة أن الحملة الفرنسية حينما هاجمت مصر في أواخر القرن الثامن عشر لم تجد من يتصدى لها سوى المماليك وجموع الشعب المصري^(١) .

رأبنا : العصبية المحلية :-

كان هدف العثمانيين من إشراك العصبية المحلية في الحكم هو الاستفادة منهم في إدارة الولايات التي يحكمونها وحتى يظلوا على ولايتهم للدولة العثمانية ولا يقوموا بالتمرد عليها. ونتيجة لذلك شارك المماليك في تولي مقاليد بعض الأمور في مصر ، كما شاركت بعض العشائر العربية في الشرقية والبحيرة في حكم المناطق التي تغطيها ، واعترف السلطان العثماني بالعصبية الكردية وأبقى حكم كردستان قبويزات الكردية الحاكمة في شمال العراق ، كما ترك لمشايخ العراق سلطة إدارة عشائرهم ، ومن أهم هذه المشيخات الخزاعل والعبيد وشمس والمنطق^(٢) .

والسؤال المطروح هو هل ظلت هذه العصبية على ولايتها للدولة العثمانية أو تحولت الفرس للتخلص من الحكم العثماني واستقلالها عنه ؟

الواقع أن هذه العصبية كانت غالبا ما تتطلع إلى استرجاع نفوذها القديم ، ومن هنا أخذت في استغلال فرص لشغال الدولة العثمانية بعشائنها الخارجية والداخلية ، ففي مصر استطاع على بك الكبير المملوك القيام بثورة ضد الدولة العثمانية في عام ١٧٧١م والاتصال عنها ، ولم يستطع العثمانيون السيطرة على زمام الموقف إلا بعد توقيعها على بروجها بين على بك وقائده محمد أبو الذهب .

وفي اليمن استطاعت العصبية المحلية القيام بثورات متعددة ضد الحكم العثماني ، تمكنت خلالها من تهالك جيوش الدولة العثمانية حتى اضطرتها إلى الجلاء عن اليمن لفترة^(٣) .

١- قرطبي : المراجع السابق ص ١٧٨-٢٨٠ .

٢- عبد العزيز شوار : دابة باشا والي بغداد ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٦١ ص ٩١ .

٣- للتفاصيل انظر : فاروق أبنلة : المراجع السابق ص ٤١٥ .

وفي وسط الجزيرة العربية قامت الدعوة السلفية التي دعت إلى العودة بالإسلام إلى ميلته الأولى وألقت بتهمة نشر البدع والخرافات في العالم الإسلامي على العثمانيين. وفي العراق قامت العصييات المحلية بالعديد من الثورات ضد الحكم العثماني مثل ثورة آل مهنا في جنوب العراق وآل شعيب في البصرة ، والعشائر الكردية في كردستان^(١). وفي الشام قامت أسرة آل العظم ، وظاهر العمر بمحاولات للاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية في استنبول .

ومع كل ذلك فإن خروج هذه العصييات المحلية على السلطة لم يخلق الدولة السلفية كثيرا وخاصة أنها كانت تستطيع الانقلاب حتى تحين الفرصة المناسبة فتستعيد نفوذها وعلى سبيل المثال تذكر على به الكبير وظاهر العمر اللذين استغلا فرصة تشغل العثمانيين في حروبهم مع روسيا ونجحا في الانفصال عن الدولة ورفع راية العصيان مندها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ثم ما لبثت الدولة أن استرجعت نفوذها على المناطق التي كانوا يحكمونها بعد انتهائها من الحرب .

أحوال العالم العربي في ظل الحكم العثماني

بعد أن سيطرت الدولة العثمانية على العالم العربي في معظمه ، وصارت للدولة الإسلامية الوحيدة في المنطقة تقريبا ، تحول العالم العربي إلى منقلب جديد في التواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية وفيما يلي نعرض لذلك .

١- تبار : المرجع السابق ص ٦٨-٦٩ .

أولاً: الأحوال السياسية :

١ - انتقال مركز الخلافة من القاهرة إلى الأستانة :

بعد هزيمة السلاطيين أمام العثمانيين انتقل مركز الخلافة من القاهرة إلى الأستانة^(١)، واتخذ السلطان سليم الأول لقب الخليفة ليضمن ولاء العرب والمسلمين له على اعتبار أن الخليفة هو في الواقع خليفة رسول الله وأنه يجب على المسلمين طاعته .

٢ - العثمانيون والأماكن المقدسة :

أصبحت الدولة العثمانية حمايتها على الأماكن المقدسة لها لها من أهمية دينية ، وحمل السلطان العثماني ألقاب خاتمي حرمي الحرمين الشريفين ، وخادم الحرمين الشريفين ، وهو لقب يكسب من يحمله احترام المسلمين وتقديرهم^(٢) ، وكان السلطان سليم الأول قد اتخذ لنفسه هذا اللقب بعد أن أرسل شريف مكة ابنه إلى القاهرة ليبلغ السلطان العثماني ولاءه واعترافه بالسيادة العثمانية على الحجاز ، وتتمسك السلاطين العثمانيون منذ ذلك الوقت بهذا اللقب النبوي^(٣) . ولحملة الأماكن الإسلامية المقدسة من أخطار البرتغاليين الذين حاولوا أكثر من مرة النيل منها أغلق العثمانيون البحر الأحمر ، وجولوه إلى بحيرة إسلامية^(٤) .

٣ - عدم إشراك العناصر العربية في حكم بلادها :

ركزت الدولة العثمانية سياستها على أن يبقى العالم العربي في جوارها لطول مدة ممكنة ، ولذلك لم يسمحوا للعناصر العربية في حكم بلادها ، بل قاموا بنشر عوامل الصراع بينها حتى تشغل عن التفكير في السلطة يضاف إلى ذلك أن الحكم العثماني كان مركزياً ، فكان السلطان هو السلطة العليا المسيطرة على كافة الأجهزة السياسية والإدارية والعسكرية ، وكان السلاطين يرون أن الولايات العربية وما عليها هي من أملاكهم الخاصة ، ولهم حق التصرف فيها على أية صورة ، ولم يكن يهم الدولة سوى جمع الأموال والحصائل التي صارت لها ولائها^(٥) .

١- فراق : المراجع السابق ص ٢١١-٢١٤ .

٢- فراق : المراجع السابق ص ٢٢٨-٢٢٩ .

٣- عبد العزيز شنتوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية ماقرى عليها ج ١ ص ٦٦ .

٤- محمد تقي : الدولة العثمانية والشرق العربي ، القاهرة ، الأجلد المصرية ١٩٨٥ ص ١٤٤ .

٥- فراق : المراجع السابق ص ٢٦١-٢٦٥ .

٤ - عدم إشراك العرب في الدفاع عن بلادهم :

بعد الفتح العثماني للعالم العربي سار الدفاع عن الولايات العربية بحسب لينة اعتمادات خارجية من اختصاص القوات العثمانية فالتفت ذلك المواطنين العرب الإحساس بقدرتهم على حماية بلادهم^(١) .

ثانيا : الأحوال الاقتصادية :

لقد العثمانيون نظم الاقتصادية القائمة على النظام الإقطاعي قبل حكمهم لولايات العويوة كما هي .

وقد عني السلطان سليم الأول بمسح الأراضي في مصر والشام ، وخصخص مقداراً منها للأجناد ومقداراً للنفقات الوالي ومقداراً للملألق وما عدا ذلك سمي بالأراضي التبرؤية أي التابعة للبيون الأعظم بالاستابة . وقد عد السلطان العثماني نفسه مالكا لكل الأراضي الزراعية ، ورأى أن أصحاب الأراضي لا يملكونها بل لهم حق الانتفاع بها فقط ، ونتيجة لذلك أصبحت الأراضي تزول عند موت صاحبها إلى الدولة ، إلا أن وراثته يستلمعون ردها إلى حوزتهم إذا دفعوا مبلغاً من المال للدولة . غير أن ذلك الوضع أخذ يتبدل بمرور الزمن وبخاصة بعد ازدياد نفوذ بكوات العماليك ، وتمكنهم من تقسيم معظم الأراضي في مصر بينهم فألت إليهم ملكية تلك ما يزرع من الأرض ، ووزع الباقي بين الفلاحين والمقارمين والأوقاف^(٢) .

وقد قام العثمانيون باتتاج طريقة المماليك في تحصيل الأموال على الأراضي ، باتتاج نظام الإكترام بالمرابدة ، وذلك بأن يتعهد المأثرم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض على أن يحصل من الفلاحين العاملين في هذه الأرض كل ما يستلزم من أموال ، وإذا هرب الفلاح وقت تحصيل الضرائب تصبر ضده عقوبات صارمة . وقد استخدم الولاة سلطاتهم لجمع كل ما يمكن جمعه من الأموال دون الاهتمام بأي إصلاح اقتصادي ، فأدى ذلك إلى تدهور الزراعة والتجارة والصناعة وزاد الطين بلة تحول طرق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح .

١- انيس : المرجع السابق ص ١٤٥ .

٢- مصر عبد العزيز : دراسات في تاريخ مصر العثمانية ، الإسكندرية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ص ١٥٤ .

ثالثا : الأحوال الاجتماعية :

نظر العشائريون إلى المجتمع على أنه ينقسم إلى قسمين : الحكام وهم الأتراك ، والمحكومين وهم الرعية ، وواجب القسم الثاني أن يعمل في خدمة القسم الأول لإمداده بما يحتاج إليه ، وبعبارة أخرى كان الأتراك يكوّنون داخل المجتمعات العربية طبقة أرستقراطية عزلت نفسها عن بقية أجزاء المجتمع بحكم فهمها لوظيفتها وإحسانها بذاتها، فكان الحكم العشائري عديم التأثير في حياة الأهالي^(١) ، وخاصة أن العشائريين لم يشاركوا العرب في حياتهم الاجتماعية العامة ، ولم يهتموا باللغة العربية ويتعامل أهلها وعوامها ، كما لم يهتموا بعثمة البلاد فاحتفظ العالم العربي ببلائه الاجتماعي الذي كان سائدا فيه قبل الحكم العشائري ، فاحتفظت الطوائف الدينية الإسلامية باحترامها ، وصلتهم حماة للتشريعة ، وقد نجحت هذه الطبقة في رد المظالم ، وكانت بمثابة حلقة الوصل بين الطبقة الحاكمة والمحكومة ، كما احتفظت الطوائف المنتجة من التجار والفلّاحين وأصحاب الحرف بسماتها السابقة ، فكان لكل طبقة شيخ تختص بسلطته ويلوب عنها لدى السلطات الحكومية ويتولى شئونها ويدافع عنها ويقوم بحل المنازعات بين أفرادها ، ويعاكب كل من يخالف منهم عرف وتقاليد الطبقة عقوبات صارمة ، وكان منصب الشيخ وراثيا وكان لمشايخ الطوائف وكلاء معروفون باسم اتقياء^(٢) . أما في الريف فكان شيخ القرية يقوم مقام شيخ المنطقة وكان الآن يرث إياه في مهنته سواء كان الأب فلاحا أو تاجرا أو صائغا ، أما البيت فلتتزوج زميل ولداها في الحرفة وقد أدى ذلك إلى تقوية الرابطة الاجتماعية وتوثيقها^(٣) .

أما أهل القمة فقد ظلوا على هامش الحياة الفكرية والسياسية في داخل المجتمع العربي وإن كانت لهم مشاركات في الحياة الاقتصادية بطريقة فعالة .

وعند تقييمنا للحكم العشائري في الوطن العربي يتضح ما يلي :

١ - أن الحكم العشائري كان ضعيفا في تأثيره على العالم العربي على الرغم من طول مدته التي تجاوزت أربعة قرون ، فلم يلجأ العشائريون في عثمنا مصر ، بل ما حدث هو أن تنصير العشائريون وأصبحوا جزءا من الحياة المصرية^(٤) .

١- محمد أمين : المرجع السابق ص ١٤٩ .

٢- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١٥٦ .

٣- أمين : المرجع السابق ص ١٤٩-١٥٠ .

٤- نفسه ص ١٤٤ .

٢ - أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ظلت جامدة وتدهورت الزراعة نتيجة لعدم الاهتمام بمراقبتها ، وتدهورت الصناعة وتحصرت في بعض صناعات يدوية ، كما تدهورت التجارة بسبب اضطراب الأمن ، وسوء طرق النقل ، وضعف القوة الشرائية^(١).

٣ - أن الحكم العثماني كان يستند في المقام الأول على رجال الدين الثقلين وأغلبوا بجانب الدولة العثمانية للاحتفاظ بنفوذها في الولايات العربية حيث كانوا يصرون على ضرورة الولاء العام للسلطان باعتباره حامى حصى الإسلام .

٤ - ظهور المحلية : أي إن الأفراد كانوا يقومون بتنظيم أمور حياتهم بعيدا عن تدخل الدولة أو أنتمائها ففي المدن كان الناس ينقسمون إلى طوائف حسب مهتهم ووظائفهم الاجتماعية ، والمطالعة كانت تشتمل أصحاب المهنة الواحدة وعلى رأسها شيوخ يتولى تنظيم شؤونها والصل في الخصومات بينها وبين الحكومة ، وفي الريف كانت كل قرية تمثل مجتمعا قائما بذاته يكاد يكون معزولا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية للقرى الأخرى ومجازة أخرى أن نظام الحكم العثماني تميز بضعف التدخل الحكومي ، وتركه الأهالي وشأنهم في كل ما يتعلق بأمورهم^(٢) ، وقد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى عدم ولاء القرد للدولة^(٣).

٥ - نجحت الدولة العثمانية في وقف الانحلال الأوربية في الوطن العربي لفترة من الوقت ، فقد أوقفت الخطر البرتغالي على البلدان العربية ، ولاحقت فرسان القديس يوحنا وتمكنت من طردهم من ليبيا ، كما كثرت شوكة الأسبان في غرب جبال البحر المتوسط .

٦ - اعتاد العثمانيون الأخذ ولم يعتادوا العطاء . فلم يهتموا بتحسين أحوال الولايات ، لذلك كان يندر أن يرسل من الأمثلة رجال صالح في أخلاقه معروف باستقامته وسعة معرفته وحسن إدارة الأمور ، ويؤكد النظم من ظلمه^(٤).

١- د. حسين خاليد: التنقيب في الاقتصاد المصري الحديث ، القاهرة ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، الطبعة الأولى ١٩٦٢ ص ٧ .

٢- محمد شفيق غريال : محمد علي الكبير ص ٢٢ .

٣- محمد أنيس : المرجع السابق ص ٥ .

٤- محمد كرد علي : المرجع السابق ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

الموضوع الخامس

الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية

أ - في مصر : حركة علي بك الكبير

ب - في بلاد الشام : ١- حركة ظاهر العمر

٢- حركة أحمد باشا الجزار

إن نظرة متعمقة لأحوال الدولة العثمانية في منتصف القرن الثامن عشر وبخاصة في الفترة التي كانت فيها حركة علي بك الكبير تبين لنا مدى الضعف الذي لحق بالدولة العثمانية من جراء الفسادات التي نهالت عليها من الدول الأوروبية وبخاصة روسيا ، فأمن ذلك قبضتها على ممتلكاتها ولوجد العديد من الحركات الانفصالية المشابهة لحركة علي بك الكبير والتي من أهمها حركة ظاهر العمر في فلسطين ، وحركة الأكراد في شمال العراق والشام ، والتسورات في البوسنة والهرسك والجبل الأسود والافلاق والبغدان^(١) ، ولتراجع بين الأشراف على إمارة مكة . ونتيجة لذلك أخذ بكوات المعاليك في مصر بالاستقلال بالفلوذ والسلطة حتى صار نفوذهم يفوق سلطة الباشا العثماني ، وأصبح لرعيهم الذي كان يعرف بشيخ البلد الكلمة المسموعة في البلاد ، وفي النهاية استغل أحدهم وهو علي بك الكبير الفرصة وتمكن من الإفتراد بالسلطة في مصر في عام ١٧٦٦.

١ - حركة علي بك الكبير :

وأقبل أن نتناول حركة علي بك الكبير بالدراسة لإد لنا من وثقة تعرض فيها لشأنه وكيفية وصوله إلى حكم مصر .
الاسم الحقيقي لهذا المملوك هو يوسف بن داود وقد ولد في عام ١٧٢٨ في بلدة

^(١) محمد راجع رمضان: علي بك الكبير، القاهرة ، دار الفكر العربي ١٩٥٠ ص ٥ .

أهزة من أصل التركيز العثماني ، وكان والده واحداً من أسرسة الكتيمة اليونانية ، ويرغب في أن يكون ابنه مثله كسيما ، ولكن الآخر لم يتمكن من ذلك وخاصة بعد أن اختلقت حسابة من قطاع الطرق هذا الإبن ، أثناء رحلة حيد كان يقوم بها في إحدى الغارات وباعوه لأحد تجار الرقيق فباع به حتى وصل إلى الاسكندرية وباعه هناك بثلثي بخس لمدير جمرك الاسكندرية ، وقد أقال مدير الجمرك باعذاته إلى إبراهيم بك أحد زعماء السعاليك في مصر (١) وقد اعتلق به سلف الإسلام ، وتسمى باسم علي ، وقد أظهر هذا المملوك من مشروب الشجاعة في ركوب الخيل والفكريات ما ساعده على الترقى فكتب لقب "جن علي" ولما بلغ الكفاية عشرة أعلاه أسكنه وولاه مستحقاً ، ثم زادت شهرته بعد نجاحه في الضرب على أيدي العدو الذين كانوا يخشون على القاهرة لهلاً ، فتربه سيده وجعله كاشفاً (٢) وولد له علي بك الترقى حتى وصل إلى منصب شيخ البلد ، وخلال ذلك أخذ علي بك في توليد إلى العثمانيين حتى اكتسب لقتهم وفي الوقت نفسه نشط في وضع أتباعه في المناصب الهامة (٣) ، كما نجح في تقليص نفوذ كل من تمانية والديوان عن طريق تربطهم في المشاركة في الحروب الداخلية ، وتأخير رواتبهم بحجة قلة المال . كما نجح علي بك الكبير في تركيز السلطتين الحربية والإدارية في يده وبخاصة بعد نجاحه في كسر شوكة العربان في الوجهين البحري والقبلي فصار صاحب نفوذ مطلق على جميع أنحاء مصر واستقامت له الأمور حتى خافه الناس وهابه الأمراء وأخذ يدير دفة الأمور كما يشاء (٤) . ولما ظهر على بك فرصة إشغال الدولة العثمانية بحروبها في روسيا (٥) ، فاستصدر من الديوان أمراً بمنزل توالى ثم تولى الحكم مكانه وليطو وورد الولاة العثمانيين إلى مصر (٦) ، وامتنع عن دفع الأموال إلى الخزينة السلطانية ، وفي عام ١٧٦٨ أحدث تغييراً في شكل العملة فجعل علي أحد وجهيها اسم السلطان ، وعلى الوجه الآخر اسمه .

وعلى الرغم من كل ذلك فمن الصعب القول إن علي بك الكبير كان يرغب في الانفصال عن الدولة العثمانية نهائياً ، بل كان كل هدفه هو الاستيلاء على السلطة في ظل

١- محمد رفعت زحمان : المرجع السابق ص ١٨-١٩ .

٢- محمد فؤاد شكرى : العملة القرصية وظهور محمد علي ، القاهرة ، دار المعارف ص ٦٦ .

٣- الجوراني : عجائب الأكثر في التراجم والأخبار ج ١ ، القاهرة ، المطبعة التجارية الشرقية ص ٣٨٤ .

٤- ميخائيل شارويف : الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث ص ١٥١ .

٥- محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق ص ٢٠ .

٦- الجوراني : المصدر السابق ج ١ ص ٣٨٤ .

السيادة العثمانية وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تمثل درعا تحمي الولايات الإسلامية من الأتباع الأوروبية ويؤكد ذلك ما لورده الجبرتي بقوله "تفق أن علي بك صلى الجمعة في أوائل شهر رمضان بجامع الدارنية فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان ثم دعا لعلي بك ، فلما انتهت الصلاة وقام علي بك يريد الانصراف لحضر الخطيب ، وكان رجلا من أهل العلم يغلب عليه الهله والصلاح فقال له : من أمرك بالدعاء باسمي على المنبر لئلا لك في سلطان ؟ فقال : نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر الغيظ وأمر بضربه ، فملحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك مثلكما من الغرب ، وركب حمائرا وذهب إلى داره وهو يقول في طريقه بدأ الإسلام غربا وسعود كما بدأ ، ثم أن علي بك أرسل إليه في ثاني يوم دراهم وكسوة واستسبحه^(١) .

وقد استطاع علي بك الكبير خلال حكمه لمصر أن يخرج البلاد من دائرة الضيقة التي فرضتها عليه المنازعات وحكم الحكام قديما بهتم بأقرار الأمن في البلاد وتنظيم الإدارة كما أخذ يتطلع إلى ما وراء حدود مصر فتخالف مع ظاهر العمر حاكم عكا ، كما عقد تصاللات سياسية مع روسيا واتصل بقائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط وطلب منه أمداده بالذخائر الحربية والأسلحة . فاستجاب للقائد الروسي لطلبه بنية إتهام الدولة العثمانية في حروب داخلية ، واضعاف قوتها العسكرية ضد روسيا^(٢) ، وعلى الرغم من ازدياد نفوذ علي بك ، واقتلعه على حقوق العثمانيين فإن لشغل السلطان العثماني بأمر الدولة الخارجية قد أضعف جهوده قراوية إلى التخلص من علي بك^(٣) ، ونتيجة لذلك بدأ علي بك الكبير يتطلع إلى ما وراء حدود مصر .

ونتيجة لاختلال أحوال الحجاز في تلك الفترة تحول انتباه علي بك نحو بلاد العرب حتى تتمكن مصر من السيطرة على تجارة البحر الأحمر وشولن^(٤) ، ولجعل من ميناء جدة مقرا لهذه التجارة ، هذا بالإضافة إلى إحصارها للمجد والشهرة بالاستيلاء على الحجاز أرض الحرمين الشريفين^(٥) .

وقد استطاع علي بك الكبير الاستيلاء على بلاد الحجاز بعد أن أرسل قواته بقيادة

١- الجبرتي : المصدر السابق ج٢ ، تحت عنوان "حوادث عام ثلاث وثمانين ومائة ولف" .

٢- محمد قريه : تاريخ الدولة العثمانية ص ١٥٩ .

٣- محمد رفعت رمضان : المرجع السابق ص ٦٤ .

٤- Irwin, Eyles : Series of Adventures in the course of Avoyage up the Red Sea Dublin 1780 vol 1 p. 159 .

٥- شكري : المرجع السابق ص ٢١-٢٢ .

محمد بك أبو الذهب^(١) إلى مكة ، وتمكن من الاستيلاء عليها في عام ١٧٦٩ . وفي أعقاب ذلك منح شريف مكة على بك الكبير لقب سلطان مصر و خاقان الجوزين^(٢) فزاد ذلك من شهرته ، وقوة شوكلته . وقد شجعت هذه الانتصارات على بك الكبير على المعنى في مشروعاته التوسعية ، فرأى ضرورة إخضاع بلاد الشام لسلطته ، وقد شجعه على ذلك ما يلي :

- ١ - اضطراب الأحوال في سورية وثورة حليفه ظاهر العمر .
 - ٢ - تشغال الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا ، وعدم تمكنها من إرسال التجنات المعجزة إلى بلاد الشام .
 - ٣ - علاقات على بك بالقاهرة كاترين الثالثة قيصرية روسيا واستعدادها لمعاونته ضد السلطان العثماني ، وظهور الأسطول الروسي في البحر المتوسط .
 - ٤ - تآمر أهل الشام من العثمانيين نتيجة لفساد الحكم والتفريق بين الأجناد المختلفة .
- ونتيجة لذلك أمر على بك الكبير قائده محمد بك أبو الذهب بالتحرف على بلاد الشام .

وقد أحرز الجيش المملوكي عدة انتصارات متوالية ، فدخل أبو الذهب غزة في مارس ١٧٧١ ثم استولى على الرملة وحاصر نابلس ثم تقدم صوب بيت المقدس حتى شملت له ووصل إلى يافا وعكا حيث قوبل بكل حقارة ، وبعدت بلاد الشام كلها تحت رحمته ، وخلال ذلك لقي أبو الذهب كل مقاومة وتعصيد من الشيخ ظاهر العمر الذي ساعده بالصبح تارة وبالإمدادات تارة أخرى حتى اضطر العثمانيون إلى التهاجر ، واستطاع أبو الذهب الوصول إلى دمشق^(٣) ودخلها في السادس من يوليو ١٧٧١ م . وأدت إليه الوفود تهلته وتزف إليه النهائي ، ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات إلى القاهرة أثبتت الاحتفالات والأعياد ، غير أن هذه الفرحة لم تتم فلم يلبث أبو الذهب أن غير موقفه من سيده ، فأعلن العصيان عليه وأسند أوامره إلى قواته بهدم خيامهم والإسهاب من دمشق ، كما نادى أهالي الشام بالأمان^(٤) وكره عاكفا إلى مصر ، وسحب في طريق

^١ يرجع إطلاق اسم أبو الذهب على هذا المملوك إلى أنه لما تبين الخطة بالقبلة ، صار يرقى القليل منها ، وفي حال ركوبه ومروره جعل يثار الذهب على القراء ، جبرني : المصدر السابق ج ١ ص ٤٢٢ .

^٢ إبراهيم الطوبى : مصباح السارى ونزهة القارى ص ٢٢ .

^٣ شكري : المرجع السابق ص ٢٤ .

^٤ جبرني : المصدر السابق ج ١ ص ٣٨٥ .

عودته جميع الحاميات التي كان قد أقامها في البلاد التي فتحها^(١) . ويختلف المؤرخون في أسباب ذلك وفيما يلي تعرض لأرائهم :

١ - اجتماع القائد العثماني عثمان باشا بابي الذهب في خيسته والقائه بأن ما قام به ضد السلطان العثماني يخالف الشرف والأمانة ، كما أن استيلاءه على دمشق ضرة يخالف الدين وخصوصاً أن دمشق من أهم مراكز الحج الرئيسية إلى الحرمين ولا يصح انتهاكها .

٢ - إرسال عثمان باشا صورة قبيلة من التتار إلى محمد باشا الذهب حتى يتركه دمشق ويعود إلى مصر^(٢) .

٣ - أن بابا الذهب حصل على وعد من السلطان العثماني بالغزو منه ، وتوليته قيادة البلد بدلاً من علي بك الكبير^(٣) .

٤ - أن بابا الذهب كان يخشى من غضب الدولة العثمانية بعد أن تفرغ من حروبها مع روسيا فتقوم بالانتقام منه ومن قواته في بلاد الشام .

٥ - أن التتاريين نجحوا في إثارة النزعة القبلية عند أبي الذهب ، وأرهموه بأن من يعصى السلطان كأنه يعصى الله ورسوله ، كما أثبتوا أنه أن اتصال علي بك الكبير بالروس أعداء الإسلام والتسوية وراء أفكار كثيرين أمير بطورة الروسا كل ذلك يعد خيانة للإسلام والمسلمين .

ولما وصلت أخبار انقلاب أبي الذهب على سيده إلى القاهرة لم يكن هناك متسع من الوقت لتجهيز الجيوش لملاقته ، ومع ذلك فقد أرسل علي بك جيشاً لمقاتلته بقيادة إسماعيل بك غير أن هذا الجيش انضم إلى أبي الذهب ، وعندئذ لم يجد علي بك مناصاً من الانسحاب والالتجاء إلى حليمة شاهر العمر في سكا ، ومشاركته في مواجهة التتاريين في بلاد الشام .

وفي بلاد الشام أعد علي بك العدة للعودة إلى مصر ، فجمع حوالي خمسة آلاف جندي تقدم بهم لملاقاة أبي الذهب الذي أرسل جيشاً لملاقته يصل تعداده إلى حوالي اثني عشر ألفاً^(٤) . وفي المعركة الفاصلة والتصر أنباء علي بك في بداية الأمر ، وانتفض الطريق أمامهم إلى القاهرة ، ولكن بابا الذهب لم يلبث أن ثار الضمائر في أتباعه متهماً علي بك بالكفر والاحاد ، كما رماه بالتحالف مع الكفار لاختطاف البلاد حتى

١- محمد رفعت زمان : المراجع السابق ص ١٦٩ .

٢- شكرى : المراجع السابق ص ٢٧ .

٣- تاريخ جوت ج ١ ص ٣٤٦-٣٤٧ .

٤- شكرى : المراجع السابق ص ٢٨-٢٩ .

يقتضي على الدين الإسلامي ويرغم الأهالي على اعتناق المسيحية ، ونتيجة لذلك ازداد حماس أتباع أبي الذهب وتمكنوا من إحراز انتصر على قوات على بك الذي ظل يقاتل حتى أصيب بجرح في وجهه وسقط من على جواده وأخذ أميراً ، وبقي في الأسر سبعة أيام حتى مات في الخامس عشر من صفر ١١٨٧هـ الموافق ٨ مايو ١٧٧٣م ، وقد شكك الجبرتي في طريقة موته ، قال : «كافأ سبعة أيام ومات والله أعلم بكيفية موته»^{١١} . وبوفاة على بك الكبير أسدل الستار على أكبر محاولة عرفتها مصر للتخلص من الميمنة العثمانية وإعلان استقلالها واستأثر محمد أبو الذهب بالنفوذ والسلطة بمساعدة العثمانيين ، ومعاضدة الباب العالي له حيث أرسل الدولة العثمانية وأظهر لهم قطاععة^{١٢} واعترف بميلانهم على مصر ، ولكن حكمه لم يستمر طويلاً حيث وافته المنية في الثامن من يونيو ١٧٧٥م أثناء محاربه قوات ظاهر العمر فخير ذلك موازين الأمور داخل مصر .

وقد اختلفت آراء الباحثين حول وفاة أبي الذهب فمنهم من ذهب إلى أنه مات بداره السكتة القلبية ، ومنهم من قال إنه مات بمرض الحمى ، ومنهم من ذكر أنه أصيب بمرض خبيث توفي على أثره نتيجة لأنه هدم خيراً ترحبان وقتل من فيه^{١٣} . وعلى كل حال فبعد وفاة أبي الذهب وقعت البلاد في حالة من الفوضى فقد شرع كبار لواء العماليك في التنازع على السلطة وقسموا إلى شيع وطوائف ، ولم تهدأ لهم ثائرة حتى تمكن مراد بك وإبراهيم بك من الاستئثار بالحكم والتسام مشيخة البلد وإمارة الحج فيما بينهما ، وفي عودتهما ارتدلت لحوال مصر سوياً فقد شاعت فيها الفوضى وانعدم الأمن ، وانفلت زمام الأمور من يد العثمانيين^{١٤} . ولما خرجت الأمور عن حودها وتدهورت الأحوال لدرجة أن أصبح الأجانب في مصر رهينة لتصرفات مراد بك وإبراهيم بك وأذا في ابتزاز قناصل الدول الأوروبية وتهديدهم بتفريب كنائس الاسكندرية إذا لم يدفعوا لهما الأموال التي يطلبونها ، تقدمت الدول الأوروبية بشكاواها إلى الباب العالي في عام ١٧٨٦ ، فأرسلت الدولة العثمانية أسطولاً بقيادة حسن قبطان باشا تمكن من السيطرة على زمام الأمور^{١٥} ، والنفوذ إلى القاهرة في أغسطس ١٧٨٦م والتد من سيطرة هذين السلاطين إلى درجة كبيرة ، وظل الحال على هذه المنوال حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر في يوليو من عام ١٧٩٨م .

١- جبرتي : المرجع السابق ج١ ص ٣٨٥ . وتقر أيضاً لواء شكرى : المرجع السابق ص ٤٠ .

٢- جبرتي : المصدر السابق ج١ ص ٤٢٢ .

٣- تاريخ الأمير حيدر : نزعة الزمان في تاريخ جبل لبنان ، القاهرة ، مطبعة السلام ، ١٩٠٠م ص ٨٢٤ .

٤- Charles Roux : L'Angleterre de Suez, et l'Egypte PP, 20-21 .

٥- Ibid : P, 199 .

ثانيا : الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية في بلاد الشام :

قسمت بلاد الشام بعد سقوطها في يد العثمانيين في أعقاب معركة مرج دابق ١٥١٦م إلى ثلاث إمارات هي :

١ - حلب وتشمل بلاد الشام الشمالية .

٢ - طرابلس وتشمل وسط الشام .

٣ - دمشق وتشمل معظم البلاد الجنوبية وقسطنطين .

واستمر هذا التقسيم سائدا حتى عام ١٦٦٠م إذ استغلت إمالة جديدة وهي صيدا لتشمل مدن الساحل وضواحيها وبلاد صفا حتى تتمكن الدولة من تقوية قبضتها على هذه المناطق (١) وفيما يلي نعرض لأهم الحركات الانفصالية في هذه المناطق :

١ - حركة ظاهر العمر الزيداني :

بعد أن اختار أهل طبرية وصفه ظاهر العمر حاكما عليهم في عام ١٧٢٣م ، أخذ في تنظيم أموره استعدادا للانفصال عن الدولة العثمانية . وقد استطاع ظاهر العمر أن يضم في فترة قصيرة صيدا ويدا وحيفا ولباس والرملة إلى حكمه ، ولما حاول باشوات الشام الوقوف في وجهه أخفقوا في مسعاهم فأدى ذلك إلى ازدياد نفوذه (٢) ورجيته في التوسع . وخلال ذلك تمكن ظاهر العمر من الحصول على فرسان من لسلطان العثماني بحكمه لصيدا ، كما تمكن من الاستيلاء على عكا وبنى بها قلعة وسكن فيها وصارت له شهرة ذائعة وأخذت قوته في التزايد وبخاصة بعد تحالفه مع علي بك الكبير في مصر . ونتيجة لانشغال الدولة العثمانية في حروبها مع روسيا استأثر ظاهر العمر بحكم عكا في الفترة ما بين ١٧٥٠-١٧٧٦م ولم تجرؤ الدولة على مناصبته العداة ، بل اضطرت إلى التساهل معه وأدى ذلك إلى تراخي نفوذها وتقوية مركزه ، فأنفذ بيني القلاح حول عكا ، ويقوى من استحكاماتها ، ويتخذ الوسائل الكفيلة التي تدعم نفوذه في هذه المنطقة (٣) .

١- رافت شوقي : في تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار الثقافة ١٩٧٧م ص ١٣٥ .

٢- من أبرز الأمثلة على ذلك حملة سليمان باشا والي دمشق إلى طبرية في عام ١٧٢٣ .

انظر موهنايل تيمسقي الخوري : تاريخ الشام ١٧٢٠-١٧٨٢ تحقيق أحمد حسان سائر ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ٢٤ .

٣- فواد شكرى : المرجع السابق ص ٦١ .

ولنتيجة لتصالح ظاهر العمر مع علي بك الكبير في مصر ، أبدى كل مجلس استعادة للجنة الآخر في حالة محاولة الدولة العثمانية للذخ بينهما ، وقد أبدى علي بك استعداده لتجدة ظاهر العمر ومساعدته ضد عثمان باشا والي الشام ، وأرسل إليه جيشاً من أربعة آلاف جندي لمعاشرته .

وعندما أرسل علي بك جيشاً بقيادة محمد بك أبي الذهب إلى الشام لمحاربة الدولة العثمانية لزعيم ظاهر العمر حتى تم له النصر ، ودخل دمشق إلا أن خيانة أبي الذهب لميداء قلايت الأمور رأساً على عقب وجعلت علي بك يلجأ إلى فلسطين للاستنجاد بالشيخ ظاهر العمر في محاولة لاستعادة مركزه في مصر ، وعلى الرغم من تقديم ظاهر العمر المساعدات للجنة فقد اندحرت قواته لتمرد لثانية علي أبي الذهب ، فسأخت لمواسف تهب بشدة على حليفه ، وانتهى الأمر بالتدخل العثماني المسلح والقضاء على ظاهر العمر في عام ١٧٧٥م ، وقتل معظم أبنائه وعودة النفوذ العثماني إلى هذه المنطقة، ولكن ذلك لم يستمر طويلاً فقد أدى انعدام السيطرة العثمانية على تلك المنطقة إلى ظهور أحمد باشا الجزائر بحركة انفصالية أخرى في محاولة لتلاءم الفراغ السياسي في تلك المنطقة في الفترة ما بين ١٧٧٦-١٨٠٤م .

٢ - حركة أحمد باشا الجزائر (١٧٥٠-١٨٠٤م):

بدأ نجم أحمد باشا الجزائر في الظهور بعدما التحق بخدمة علي بك الكبير في مصر، إلا أنه ما لبث أن فكر في الهرب من مصر خشية بطش سيده ، فتكر في زى المغاربة ، وتوجه إلى دمشق حيث حصل في خدمة واليها فترة ، ثم توجه إلى لبنان وتصل بالأمير يوسف الشهابي الذي أعجب بذكائه وقوة عزيمته وطموحه فأسند إليه ولاية بيروت التي كانت مهددة في ذلك الوقت من قبل الأسطول الروسي (١) ، وقد تمكن الجزائر من السيطرة على زمام الموقف في بيروت لفترة ، إلا أن الأسطول الروسي سرعان ما

١- اسمه الحقيقي أحمد البرندقي ، وأطلق عليه لقب الجزائر لشجته وصراجه ومرافقه في القتال وسفك دماء من أجل الوصول إلى الحكم والسيطرة والولاية .

للتفاصيل انظر الأمير أحمد حيدر الشهابي: لبنان في عهد الشهابيين - تحقيق لؤي رسام وفاء قيسنتي ، قسم الأول ، بيروت ، مطبعة فكرليكية ١٩٣٣م ص ٩٦ .

٢- محمد جميل بيهم : حقبة المغامرة في تاريخ العرب ، القاهرة ، مطبعة الجاهلي العربي ، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ/١٩٤٠م ص ٥٦ .

حزم قواته هناك مما اضطره لتحويل إلى استيواي ، وهناك استطاع أن يقبل بالقبس الوزارة والبنوية ، ويمتص ولاية صيدا وأن يبدأ مرحلة جديدة في حياته كوال تابع للدولة العثمانية مباشرة . وبعد أن برزت قوة الجزائر في السيطرة على زمام الموقف ، والقضاء على بقية الريدانيين من أتباع ظاهر العمر ، منحت الدولة العثمانية عكا بالإضافة إلى صيدا ، قائم بتحصينها ، كما عمل على زيادة معالقه وأقاصره . وخلال ذلك سعى الجزائر للقضاء على أسرى آل العلم والشهابيين^(١) ، كما بلغ نفوذه شأوا عظيما لدرجة أن أصبح بمثابة الحاكم الفعلي لبلاد الشام .

وبعد أن سمع الجزائر بتحريك قوات الحملة الفرنسية من مصر استعدادا للهجوم على الشام ، بدأ في زيادة استعداداته في عكا ، وتجهيز مدافعه تحت إشراف عدد من الخبراء الأوروبيين ، كما أرجد فيها حاميات عديدة تستمد مساعدتها بحرا من الأسطول الانجليزي بقيادة سميتي سميتي مما جعل عكا صعبة المنال أمام بونابرت وقواته وجعل رجالا للدولة العثمانية ينظرون إلى الجزائر على أنه مطمح أمالهم في النصر . ونتيجة لاستيصال الجزائر وقواته في الدفاع عن عكا ، وقضى مرضي الطاعون بين القوات الفرنسية اضطر نابليون إلى الانسحاب من أمام أسوار عكا والعودة إلى مصر مما زاد من هيبة الجزائر وعزز من مكانته أمام الناس ، وجعله يظهر بمظهر الحاكم المطلق في بلاد الشام ، ولما خشيت الدولة العثمانية من إزدياد نفوذه أخذت تثير له المكائد للقضاء عليه فتحلفت مع الأمير بشير الشهابي ضده ولكن الجزائر قوت هذه القرصة على أعدائه ، وحاول أن تقلل علاقاته وطيدة مع العثمانيين وكان مستعدا لإعلان ولايته لسلطان ، وظلت الأمور على حالها حتى توفي الجزائر في ١٦٦٩هـ / أبريل ١٨٠٤م وهو في ذروة قوته وسلطانه .

١- للتفاصيل انظر الشهابي : المصدر السابق ص ١٦٠-١٦٥ .



الموضوع السادس

السلطان عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية ١٨٧٦-١٩٠٩م

السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد هو السلطان الرابع والثلاثون والخليفة السادس والعشرون من خلفاء بني عثمان . ولد في عام ١٢٥٩هـ وبالتحديد في ٢١ سبتمبر من عام ١٨٤٣م ونشأ في حياة مليحة بالكبت والحذر خصوصا وأن والده كان يكرهه ويفضل إخوته عليه^(١) ، كما أن والدته قد توفيت ، وكان لا يزال في الثامنة من عمره ، يضاف إلى ذلك أن خلع صه عبد العزيز ثم إتمامه ثم خلع أخيه مراد الخامس قد زاد من حذره وتخوفه ولو كان من أقرب المقربين إليه . ونتيجة للقدان عبد الحميد تولدته في الصغر عهد بحضنته إلى عجوز من نساء القصر ، ثم إلى إحدى زوجات والده واسمها "برستوختم" حيث لم تكن تنجب أولاداً فبنته ، ولعلّت في تربيته . ونظراً لكل هذه الأمور مآل عبد الحميد إلى العزلة والافتراق بنفسه ، وكان يتهرب دوماً من إخوته ولا يشاركهم في ألعابهم ، وأقصى أيام صباه بين الخمسين والعميد والجزاوي^(٢) ، وقد تولى عبد الحميد أمور السلطنة في ١٨ من شعبان ١٢٩٣هـ الموافق ٦ من سبتمبر ١٨٧٦م ، وكانت مدة حكمه اثنين وثلاثين (٣٢) عاماً وخمسة أشهر وستة وعشرين يوماً ، وهو من السلاطين العثمانيين القلائل الذين عمروا كثيراً وحكموا طويلاً حيث مات عبد الحميد في العاشر من فبراير ١٩١٨م عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاماً^(٣) .

١- مؤلف تاريخي هام : عصر السلطان عبد الحميد ، ذكره في الأقطار العربية ، دمشق ، مكتبة النهضة ، الطبعة الثانية ، ج ٣ من ٦٥-٦٨ .

٢- الهلال : مجلة أسبوعية صدرت من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يونيو ١٩٠٩ من ٥١٥-٥١٨ .

٣- مؤلف تاريخي هام : من ٦٥ .

وكذا واجهت السلطنة العثمانية في عصر عبد الحميد أزمت متعددة استغلها الدول الأوربية في إثارة الفتن ضدّها خصوصاً في ولاياتها غير الإسلامية فحركة القنن الموسوية في كريت وصربيا وبلغاريا ، كما بدأت توجه التهديدات للسلطنة وتطالبها بالمشاركة في إجراء الإصلاحات يضاف إلى ذلك أن روسيا ألحقت في إشهار الحرب على السلطنة لإجبارها على تعديل معاهدة باريس بغية الحصول على مكاسب إقليمية جديدة لها^(١) ، ورغبة منها في تخليص لماري البلقان من حكم المسلمين باعتبارها جامعية الأرثوذكسية في ذلك الوقت يضاف إلى ذلك رغبة في تحقيق حلمها التاريخي في الوصول إلى المياه الدافئة^(٢) كل ذلك أدى إلى تكوين كتل مسيحية من "لروسيا" ورومانيا والبلج والأرد والمغرب ضد الدولة العثمانية ، واتخذ الصراع بين الجانبين شكل الصراع الصليبي بين المسيحية والإسلام حيث ركز النمساوي اهتمامهم على تسف الأحياء الإسلامية في المناطق التي اتجموها ، وعلى قتل سكانها وهناك أراضهم ، وتخريب المساجد^(٣) .

ونتيجة لذلك رأى السلطان عبد الحميد أن الوسيلة المثلى لمواجهة هذه الهجمات الصليبية هي جذب عواطف المسلمين إليه^(٤) ، والعمل على كسب ولائهم فبدأ في إخلاصة نفسه بإظهار من التقي والتكشف ، كما بدأ يقرب إليه الفقهاء ورجال الدين الإسلامي^(٥) . يضاف إلى ذلك أنه جنى إلى الاستفادة من منصبه كخليفة لتعزيز سلطته الدينية ، ودفع مؤامرات أوروبا عن بلاده ومن هنا بدأ في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، وتقريب مجموعة من علماء العرب وأشرف مكة إليه^(٦) ، كما اعتمد على الدعاية الإسلامي جمال الدين الأفغاني في الترويج لهذه الدعوة على مستوى العالمين العرب والإسلامي ، هذا إلى جانب قيام نائق كمال بنهيبة الأدهان في لوساطة المتشددين بالتركية .

- ١- محمد جميل بهيم: فلسفة الحكم العثماني ج٢ ، بيروت ١٣٧٢هـ/١٩٥١م ص ١٦١ .
- ٢- محمود صالح منسي: حركة القفظة العربية في الشرق الأوسط ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ص ٧١ .
- ٣- عبد العزيز قشاشي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مقترى عليها ج٢ ، القاهرة ، الإقليم المصرية ، ١٩٨٠م ص ١٠٧٤-١٠٧٥ .
- ٤- مذكرات السلطان عبد الحميد: ترجمة وإعطاء محمد حرب ، القاهرة ، دار الإصدار ١٩٧٨ ص ٧ .
- ٥- جورج الطولوني: بقعة العرب ، ترجمة أحمد حيدر الركابي دمشق ، مطبعة قزاق ص ٦٧ .
- ٦- بهيم : المرجع السابق ج٢ ، ص ١٧٨-١٧٩ .

وأخذ السلطان على عاتقه تنفيذ الفكرة عمليا ، وقبيلتها بصفتها خليفة للمسلمين ، وعندها أحبط الأسلم في إتقاء الدولة وإحيائها من جديد ، وخير سلاح يحارب به النفوذ الاستعماري الغربي الزحف على العالم الإسلامي^{١٩} .

وقد اتسعت دلالات معنى الجامعة الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتشمل مفاهيم عدة ، فبعض المصلحين رأى فيها دعوة للرجوع بالدين إلى ما كان عليه السلف الصالح وآخرون فسروها على أنها دعوة لتحديث المفاهيم الإسلامية وتطويرها وتفسيرها بشكل يساهم في تطور الحياة الحديثة ، ويتماشى مع المفاهيم الواردة من مدينة الغرب وثقافته وقسم ثالث رأى في حركة الجامعة الإسلامية دعوة إلى إحياء الخلافة القرشية من جديد ، لكن من غير أن يكون لهذا الخليفة سلطة قانونية بل يكون مجرد رمز ديني لوحدة المسلمين^{٢٠} ، ثم امتزجت هذه المفاهيم عندما دعا الأفغاني إلى جامعة إسلامية تقوم على دعائم أسلمية تتركز فيما يلي :

١ - ضرورة التمسك بالخلافة كنظام ديني ، ونظام سياسي حتى يمكن مقاومة التأثيرات الأوروبية التي امتدت ساحتها داخل بلاد المسلمين ، وتكافح من العالم الإسلامي بعلماء ، وأقلام شمالي إفريقية ، والشرق الأدنى والأوسط بغضاسة من السيطرة الأوروبية المالية والسياسية والعسكرية^{٢١} .

٢ - إيجاد حد أدنى من التضامن السياسي بين المسلمين ، لاستعادة ما فقد من ديارهم والحفاظ على ما تبقى بأيديهم منها^{٢٢} .

٣ - الحج إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة حيث الكعبة المشرفة لما في ذلك من تربية دينية توصل العقيدة ، وتنبهها في نفوس المسلمين في كافة أنحاء المعمورة^{٢٣} .

وقد اتخذ الأفغاني في سبيل نشر أفكاره وسائل عدة كالخطابة والكتابة ، ومقابلة الحكام ، وتكوين الجمعيات ، وعاش في سبيل ذلك الكثير من مرارة التقى ومظاهر التضيق ، وظل مناديا بفكرة الجامعة الإسلامية برغم كل الصعاب ، ودعا المسلمين إلى

١- فتاوى : المراجع السابق ج ٣ ، ص ١١٩٩-١٢٠٠ .

٢- لعمد فهد الشولكة : حركة الجامعة الإسلامية ، الأردن ، قرقاء ، مكتبة هشار ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص ٥ .

٣- فتاوى : المراجع السابق ج ٣ ، ص ١١٩٨٣-١١٩٩٥ .

٤- الشولكة : المراجع السابق ص ١٣٢ .

٥- فتاوى : المراجع السابق ص ١١٩٩-١١٩٥ .

الوحدة الصحيحة جاعلين أمامهم الأعظم في ذلك القرآن الكريم^(١). وفي الوقت الذي ظهرت فيه فكرة الجامعة الإسلامية ظهرت في لركان الدولة العثمانية حركات أخرى لمناهضة هذه الفكرة فظهرت حركة الجامعة الصقلية ، وحركة الجامعة الجرمانية ، ونتيجة لذلك عمل السلطان عبد الحميد على توحيد العناصر المتعددة في الدولة من ترك وعرب وكرد وغيرهم بهدف تكوين جبهة واحدة تستطيع الصمود أمام الأطماع الأجنبية ، فأحاط نفسه بمجموعة من الأكراد والأرمنوع وعلى بتربية أبناء المشترك تربية إسلامية ، كما رأى ضرورة امتداد أواصر الأخوة الإسلامية إلى كل مسلمي آسيا وأفريقية سواء في الصين أم الهند أم لوانسط أفريقيا أم غيرها^(٢). وعلى الرغم من أن هذه السياسة قد خلقت بعض أهدافها واستطاعت أن تزعج بعض الدول الأوروبية مثل بريطانيا وفرنسا ، وكلاهما جهدا كبيرا في سبيل مقاومتها ، ولنت إلى إحراج مواليهما^(٣) ، فإن نجاح حركة الجامعة الإسلامية ظل مرهونا بتواجد السلطان عبد الحميد على العرش . وحتى تزداد هيبة السلطان عبد الحميد الدينية بين المسلمين وأى ضرورة الاهتمام بتسيير أمور أداء فريضة الحج لهم عن طريق إنشاء خط حديدى بين دمشق والمدينة ، وقد قيل إن عزت باشا العابد - المورى الأصل والذي كان سكرتيرا ثانيا لسلطان عبد الحميد - هو الذى أدخل في روح السلطان إمكانية تقوية الخلافة بهذا المشروع الذى يمكن أن يشد من قبضة الدولة على الأماكن المقدسة ، ويعززها بإذكاء شعور المسلمين في مختلف أرجاء العالم هذا بالإضافة إلى تسهيل سفر الحجاج وتقليل ما يواجههم من صعوبات في ذهابهم وإيابهم^(٤).

- ١- عبد الحميد الجبى : عبد الله القام ودوره في الحركة السياسية والإصلاحية ، القاهرة ، دار الكتاب الجامعى ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م من ٢٤٢ .
- ٢- مذكرات السلطان عبد الحميد من ٧ .
- ٣- يوم : المرجع السابق ج-٢ ، من ١٧٩-١٨١ .
- ٤- كثرالكة : المرجع السابق من ١٨١-١٨٢ .

وقد ظلت الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تتأرجح صعودا وهبوطا وأخيرا وضعتا حتى حدثت ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ وخلق السلطان عبد الحميد طغمت حركة الجامعة الإسلامية في مسيرتها (١) خصوصا بعد تعصب جماعة الاتحاد والترقي للحركة الطورانية، والسائق الشريف حسين بن علي وراء عود بريطانيا بإقامة خلافة عربية ، وموقف المعارضة الشديد الذي اتخذته القضاة القضاة في الولايات العربية ضد فكرة الجامعة الإسلامية (٢) .

١- لوثر ديب ستونارد : حاضر العالم الإسلامي ج ١ - ترجمة صباح تويجش ، بيروت ، دار الفكر ،

الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٣م من ٣٠٥-٣٠٨ .

٢- فتاوى : المرجع السابق من ١٢٩٧-١٢٩٩ .



الموضوع السابع

الدولة العثمانية خلال الحرب الأولى

وظهور ألتاتورك

دخلت الدولة العثمانية عصار الحرب الأولى في عام ١٩١٤م إلى جانب دول الوسط المكونة من ألمانيا والنمسا والمجر ضد دول الحلفاء المكونة من بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا . ويرجع أسباب انضمام العثمانيين بجانب ألمانيا إلى ما يلي :

١ - إن صفتهم كانت بوضاء مع العثمانيين بعكس بريطانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا التي اقتلعت أجزاء من أراضي الدولة العثمانية ، ومزقت إمبراطوريتها^(١) واستهدفت تمزيق أراضيها ، وضرب الشعوب الإسلامية عتقاً واقتصادياً . فروسيا للروسية كانت ترمي إلى تمزيق تركيا وتعمل على الاقتراع مضيق الدردنيل الذي يربط البحر الأسود بالبحر المتوسط منها ، كما كانت تسعى للاستيلاء على استنبول . وبريطانيا كانت تعمل على اقتراع العراق والسيلين من تركيا ، وتوطيد أقدامها في مصر^(٢) وفرنسا كانت تريد بجانب استيلائها على الجزائر وتونس ومراكش الاستيلاء على الشام ، أما إيطاليا فبعد استيلائها على ليبيا فإن تطلعاتها تجاه ممتلكات الدولة العثمانية لم تتوقف .

٢ - تزيد المصالح الألمانية داخل الدولة العثمانية بشكل كبير خلال العقود القليلة التي سبقت وقوع الحرب فكانت هناك فروع ألمانية ، وسكة حديد برلين بغداد التي يتولى الألمان تنفيذها ، كما كان تحديث الجيش الألماني يتم على أيدي خبراء من الألمان

١- صبر قيرازوي : الحرب العثمانية الأولى ، بيروت ، دار العلم للملايين ، طبعة ثامنة ١٩٨٢ من ١٢٨ .

٢- هيئة من اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي : تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي (حزب البلاشفة) ، بيروت ، منشورات الفارابي ، ١٩٥٤ من ٢٢٢ .

وبشأن الماتى^(١) مما حدد سيطرة إنجلترا على منطقة الشرق الأدنى .
 ٣ - عروض ألمانيا المتعددة لحل مشاكل الدولة العثمانية جعل العديد من أعضاء
 الوزارة العثمانية يميلون إليها ويرغبون في الوقوف بجانبها^(٢) .
 ٤ - إجماع أعضاء الاتحاد والترقي للدولة العثمانية في حرب ليس لها فيها ناقة ولا
 جمل .

ومع أن الحكومة الإنجليزية قد بذلت جهودها لضمان حياد تركيا خشية انضمامها
 إلى ألمانيا وذلك بتقديم التزامات تتضمن استقلالها وعدم تجزئتها^(٣) ، فإن الحزب الحاكم
 في تركيا كان يريد الانضمام إلى جانب ألمانيا .
 ولكي تكسب الدولة العثمانية الوقت الذي يمكنها من الاستعداد لدخول الحرب بذلت
 في معاملة الحلفاء في الرد على مطالبهم بخصوص الوقوف على الحياد في الحرب ،
 وعرضت عليهم شروطها كي لا تنضم إلى الألمان ومنها :
 ١ - إلغاء الامتيازات الأجنبية في أراضيها .
 ٢ - إعادة جزر الأرخيل إلى السلطة العثمانية .
 ٣ - حل القضية المصرية .
 ٤ - وقف بريطانيا وفرنسا ضد لطامح روسيا في الدولة العثمانية .

وبعد ثلاثة أيام من تقديم هذه الشروط جاء رد الحلفاء كما يلي :
 ١ - يرى الحلفاء إمكانية إلغاء الامتيازات الأجنبية إذا الامتيازات القضائية التي
 يكون في إغاثتها مماس بحقوق الأجانب القاطنين في ممتلكات الدولة العثمانية .
 ٢ - يرى الحلفاء أن يترك طرح مناقشة قضية جزر الأرخيل إلى وقت ملائم .
 ٣ - ترك حل القضية المصرية إلى ما بعد الحرب ، حتى يمكن حلها بطريقة
 مرضية لجميع الأطراف .

١- عبد العزيز نور وعبد المجيد لطفى : التاريخ المعاصر - أوروبا من الثورة الفرنسية إلى الحرب
 العالمية الثانية ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣ ، ص ٤٤٣ .
 ٢ - المجموعة التاريخية المصورة : تاريخ الحرب العالمي ١٩١٤-١٩١٨م ج ٦ ، تصريح الطلعت بالشا
 وزير الداخلية التركي تحت عنوان "موقف تركيا قبل إعلان الحرب" ص ٢٢ .
 ٣- وايم لانور : موسوعة تاريخ العالم - ترجمة محمد مصطفى زيادة ج ٧ ، القاهرة ، النهضة المصرية
 ١٩٦٩ ص ٢٣٩٢-٢٣٩٣ .

٤ - تعيد الحلفاء بتأمين سلامة الدولة العثمانية وتأييد استقلالها^(١).

وعلى كل حال فبعد أن بدأت الدولة العثمانية في استكمال استعداداتها حيث قامت بتعبئة نصف مليون جندي ، وتدريب حوالي ربع المليون^(٢) ، أعلنت عن عزمها الانتزاع الفعلي في الحرب إلى جانب دول الوسط ، كما أعلن السلطان العثماني بصفته خليفة المسلمين الجهاد ضد الحلفاء في كافة البلدان الإسلامية التي يسيطرون عليها ، وأصدر أوامره بمهاجمة الحلفاء في الجبهات التالية :

١- الجبهة القوقازية الأناضولية .

٢- الجبهة البلقانية .

٣- جبهة الخليج العربي والعراق وفارس .

٤- جبهة قناة السويس والشام .

٥- جبهة اليمن^(٣) .

وقد قام الأتراك في بداية الحرب بأعمال حربية باهرة بمساعدة الألمان^(٤) فقام الأسطول التركي بضرب الموانئ الروسية على البحر الأسود ، كما بدأت القوات التركية في صد الزحف الروسي على القوقاز ، والتقدم نحو روسيا في محاولة لتطويق جيشها^(٥) ، كما حاولت التقدم تجاه قناة السويس .

ثم تطورت الأمور في ربيع عام ١٩١٥ فتجهت الجبهة الألمانية الفرنسية بعد أن توقفت ألمانيا عن محاولتها للاستيلاء على الأراضي الفرنسية نتيجة لعدم التمكن من تحقيق أي اقتصار فعلي ، كما تعرض الروس لانكسار شديد ، يضاف إلى ذلك قيام الإنجليز بتركيز ضرباتهم على الجبهة التركية ومحاولتهم احتلال شواطئها للردنيل^(٦) ، واستمر القتال هناك عدة أشهر ولكن يتمكن الحلفاء من وقف الدعوة إلى الجهاد التي أطلقها السلطان العثماني ، وتلتصقت شمل الصف الإسلامي أمام الإنجليز بالانصراف

١- مجموعة تاريخية : المرجع السابق ج٢ تحت عنوان "الحلفاء يسترضون تركيا" من ٢٠-٢١ .

٢- مجموعة تاريخية : المرجع السابق ج٢ مقال تحت عنوان "المعارك العربية في القوقاز" .

٣- نور وانامي : المرجع السابق من ٤٤٨ .

٤- كارل بروكلمان : الإسلام في القرن التاسع عشر- ترجمة لييه فارس ومثير بطيحي - بيروت ، دار طبع المثلين ، الطبعة الخامسة ١٩٧٩م ص ٦٠٢-٦٠٤ .

٥- مجموعة تاريخية : المرجع السابق ج٢ مقال تحت عنوان "المعارك العربية في القوقاز" .

٦- أمين سعيد : ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم ج١ ، القاهرة ، مطبعة الحلبي ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م من ٢١١ .

بالشريف حسين أمير مكة المكرمة ، وعرضوا عليه التعاون ضد الأتراك في تطهير
وعردهم له بتخليص العرب من نير الحكم التركي^(١) ، ونتيجة لذلك تدخل الشريف حسين
الحرب ضد الأتراك واستطاع الاستيلاء على معظم مدن الحجاز ، كما استطاعت جيوش
الثورة العربية إحياء حملة تركية كدائية توجهت إلى الجزيرة العربية ، وحالت بينها وبين
السيطرة على عدن^(٢) . أما من جهة العراق وفلسطين فقد كانت كدرات الأتراك على
المسود أمام الجيوش البريطانية محدودة ، خصوصا وأن الثورة العربية الكبرى كان لها
أكبر الأثر في الحد من قدرتهم على المواجهة حيث فصلت القوات التركية المتمركزة في
اليمن عن القوات الرئيسية في الحجاز والشام وسقطت العقبة في يد الإنجليز في ٦ من
يوليو ١٩١٧ ، والقس في ٩ من ديسمبر ١٩١٧م ثم تلى ذلك سقوط دمشق وبغداد^(٣) .
وعن جبهة الدردنيل فقد ظلت الحرب مستعرة ، ولم تكمل العملية لواء من
الطرفين ، وإن كان مصطفى كمال قد استطاع تمالك زمام الموقف وتجنبة الروح المعنوية
والقتالية لدى جنوده خصوصا بعد أن حل محل القائد الألماني "ساندروس"^(٤) .
ونتيجة لخروج الدولة العثمانية من الحرب مكسورة الجناح ممزقة الأوصال فقد
تلقى الحلفاء في مؤتمر سان ريمو في أبريل ١٩٢٠م على تقسيم البلدان العربية لتابعة
لتركيا فيما بينهم ، كما اتفقوا في معاهدة "سيفر" على تقسيم أملاك الدولة العثمانية الأوربية
فيما بينهم أيضا فأعطيت اليونان معظم أملاك الدولة العثمانية الأوربية هذا التسليم اليونانية
وبجر مرمره ، وجعلت القسطنطينية تحت وصاية لجنة دولية ، وأجبر السلطان العثماني
وحيد الدين على التوقيع على هذه المعاهدة^(٥) التي لو لو نفذت بنودها لكانت تركيا أكثر بعد
عين مما جعل الرأي العام التركي يثور على السلطان وأدى إلى إبراز دور كمال أتاتورك
ورجاله الذين تمكنوا من دحر القوات اليونانية والفريق شمشا ، يضاف إلى ذلك أن
الإنجليز الذين أرادوا أن يجعلوا من أتاتورك بطلا في نظر الشعب التركي حتى يتمكن
من التيقن على زمام الأمور في تركيا ويساعد على تحقيق مطالبهم انسحبوا فجأة
وبطريقة مريبة من ساحل غالابولدي وتركت مسلحتهم العربية موقعتها بسرعة

١- عبد العزيز تراز : تاريخ العرب المعاصر مصدر والعراق ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٣
ص ٨٥ .

٢- زاهية لقوة : تاريخ العرب الحديث ، بيروت ، دار النهضة العربية ١٩٧٥م ص ٢٥٢ .

٣- تراز ونظمي : المرجع السابق ص ٤٦٩ .

٤- د.جيريت فون ميكلش : مصطفى كمال الشل الأطلي - ترجمة كامل مسيحه - بيروت ، مكتبة
الأملية ، ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م ص ١٣٢-١٤٥ .

٥- تراز ونظمي : المرجع السابق ص ٤٩٠ .

مذهلة^(١) مما أدى إلى استرداد الأثراف للعديد من المواقع وتضار فوات أتتوركا^(٢) . ونتيجة لذلك بدأ نجم أتتورك في الازدهار وبدأ الناس يحنثون عن شجاعته وبطولته ، وانتهى الأمر بعقد معاهدة لوزان ١٩٢٣م التي أقيمت لتركيا الأناضول وأرلسة ولقسطنطينية وأخرجت ما بيدها من البلدان العربية^(٣) . وفي أعقاب ذلك أعلن مصطفى كمال فصل السلطنة عن الخلافة ثم قام بانقلاب عند السلطان وحيد الدين ، وعزله بالقوة وأحل محله خليفة عثماني آخر وهو السلطان عبد المجيد بن عبد العزيز في عام ١٣٤٠هـ الموافق ١٧ من نوفمبر ١٩٢٢م ، وفي أعقاب ذلك بدأ التخليط لإلغاء الخلافة وإعلان علمانية الدولة ، فقرر مصطفى كمال إعلان الجمهورية ، وتم اختياره رئيساً لها^(٤) . وفي عام ١٣٤١هـ الموافق أول مارس ١٩٢٤م قام مصطفى كمال بدعوة المجلس الوطني ، وتقرر فيه بمرء خليفة وإلغاء الخلافة ، وفصل الدين عن الدولة ، والأخذ بالقانون المدني السويسري ليكون بديلاً عن القانون الإسلامي في الأحكام الشرعية^(٥) ، ونقل عاصمة الدولة إلى أنقرة ، ونتيجة لذلك غادر السلطان عبد المجيد آخر خليفة عثماني تركيا إلى سويسرا^(٦) ، كما أقيمت الوظائف الدينية والشرعية ، وأصبحت الأوقاف ملكاً للدولة مما أثار موجة عنيفة من السخط والغضب في كافة الأوساط الإسلامية .

وهكذا زالت الدولة العثمانية من الوجود ، وأصبحت أثراً بعد عين .

١- علي حسن : الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى .

٢- ذا جويرت لون ميكلش : المرجع السابق ص ١٣٧ .

٣- لوقروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامي - ترجمة هاجا توبيش ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ ، ص ٣٢٦-٣٢٧ .

٤- محمد محمد توفيق : كمال أتتورك ، القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٣٦م ص ١٢٦ .

٥- محمود شاكور : مواطن الشعوب الإسلامية في آسيا - تركيا ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ص ٤٠ .

٦- محمد توفيق : المرجع السابق ص ١٤٠ .



الموضوع الثامن

الدولة العثمانية ما لها وما عليها

من المعروف أن لكل دولة مزايا تذكر لها ، وماخذ تسجل عليها وأن المؤرخ الصافي هو بمثابة القنصل الذي يحكم بالحيثيات وشهادة الشهود ، لذلك فليس من الموضوعية إغفال مزايا الدولة العثمانية والاقتصار على تسجيل عيوبها أو العكس بل يجب على المؤرخ أن يتعرض للجانبين معا دون التحيز لهذا الجانب أو ذاك . ومن المعروف أن تاريخ آل عثمان بما فيه من حسنات وسيئات هو في الواقع يعد حلقة من تاريخ المسلمين ، كما يعد مرحلة طويلة من مراحل تاريخ العرب الحديث ولا سيما في الشرق الأدنى^(١) . فلم ينظر العرب إلى الدولة العثمانية على أنها دولة أجنبية أو مقتصبة أو مستعمرة لبلادهم إلا في بداية القرن الحالي ، خصوصا وأن العثمانيين مسلمون ، والذين السائد في البلاد العربية هو الإسلام ، كما أن الدولة العثمانية حملت لواء الخلافة الإسلامية بعد هزيمتها للمماليك في موقعتي مرج دابق والريدانية ، ونقل الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين من مصر إلى استنبول^(٢) .

وحتى تتضح الصورة حول إيجابيات وسلبيات الحكم العثماني ينبغي أن نقسم أحوال هذا الحكم إلى مرحلتين أساسيتين : مرحلة القوة ، وهي المرحلة التي شيد فيها العثمانيون دولتهم على أسس سليمة مكنتهم من ارض سيطرتهم على مناطق كبيرة في آسيا وأوروبا وأفريقية . وكانت نظرة العثمانيين خلالها لا تختلف من الشعور بالقوة والتفوق على من هدام من البشر ، وحيث كانوا يعتمدون فيها على مواقف المؤمن من غير المؤمن المدغم بتفوق عسكري كاسح ، لذا فقد بنت الدولة العثمانية قواعدها على أنها دولة عسكرية وكل أفرادها - حتى ولو كانوا من النساء والفتيات - يعد محاربين عند الحاجة ، وهذه الفترة يمكن أن تتوقف عند موت السلطان سليمان القانوني ١٥٦٦م ومرحلة الضعيف

١- محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني ج٢ ، بيروت ، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٤م ص٨ .

٢- القفاصيل لفر محمد بن أحمد بن أبيس : دائع الزهور في وقائع الدهور ج٣ ، القاهرة ، المطبعة الكبرى بولاق ، ١٣١٢هـ . ص ١٢٠ ، ص ١٤٧ .

وحي التي تميزت بهزائم العسكرية المتلاحقة التي يبرزت منذ هزيمة كارلوفيتز (Karlovitz) (١) ١٦٩٩-١٧٠٢م حيث أصبح من خلالها مدى تخلف القوات العثمانية عن ركب الحضارة الحديثة وعجزها عن رد كيد أعداء المسلمين (٢) . ويمكن القول بأن هذه المرحلة استمرت حتى سقوط الخلافة .

ومن خلال هاتين المرحلتين يتضح أن السلاطين الأوائل من من آل عثمان كانت في الواقع لهم اليد البيضاء في رفع شأن الإسلام وما وصل إليه من عظمة ومؤدد وسيادة. كما تحمل الأتراك منهم مسئولية التعبير المؤلم الذي لكت إليه الدولة في عهدهم ، وادى في النهاية إلى انهيارها (٣) .

فمن المعروف أن العثمانيين في فتوحاتهم لأوربا نظروا إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شيء ، فكان ولازم ينتج إلى الدين الإسلامي أولاً حيث كان الدين والدولة عندهم شيئاً واحداً ، ولقرآن والسنة هما المصدران الأصيخان في أي تحرك منهم أو عليهم ، ومن هنا فتحوا للإسلام العديد من الأمصار التي لم يملأ إليها قدم مسلم من قبل (٤) ، مما كان له أثر طيب في نفوس المسلمين ، ففي القاهرة ودمشق كانت تقام الأفراح والزيارات عقب كل انتصار يحرزه العثمانيون .

وقد اقترنت حركة الفتوحات العثمانية سواء في الأناضول أم في أوربا باسم الإسلام ومن هنا نظر الأوروبيون إلى الفتوحات العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، فباسم الإسلام وأصل عثمان مؤسس الدولة العثمانية جوده في نشر الإسلام في مناطق التتار، وواصل عمليات الجهاد الإسلامي المنتظم ضد الكيانات المسيحية المجاورة له .

وباسم الإسلام تمكن مراد الأول ثلاث أمراء آل عثمان ٧٦٢-٧٩٢هـ/ ١٣٦٠-١٣٨٩م من دخول البلقان وفتح العديد من الإكسارات التي توجت بفتح مدينة

١- تارخات بعدد الدولة العثمانية عن السير وترساقيا وبعض المناطق الأخرى لروسيا والنمسا وبولندا.
٢- سيد مصطفى : الإصلاح العثماني في القرن الثامن عشر - لقد حالة الفن العسكري والهندسة والطوب في القسطنطينية ١٨٠٣م - تحقيق خالد زينة ، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٧٩م ص ٩١ .

٣- مجموعة من المؤلفين : عصر السلطان عبد الحميد الثاني وآثره في الأفكار العربية ١٨٧٦-١٩٠٩م، دمشق ، المكتبة الهاشمية ، الطبعة الثانية ٥ . ص ٩ .

٤- عبد العزيز الشاذلي : الدولة العثمانية دولة إسلامية ملأى عليها جلا ، القاهرة ، الأبيتر المصرية ١٩٨٠م ص ٦٠ .

٥- وان بيروت : قصة الحضارة - ترجمة عبد الحميد يوسف ، جاء من معهد الشاس ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٦٠٩ .

أبرزة^(١) ١٢٦١م) وهزيمة القوى الصليبية ولقن العاصمة من يروسة إلى أدرنة التي صمرت بالمساجد والمدارس وأصبحت نقطة انطلاق للمواصلات الفتوحات الإسلامية في أوروبا^(٢).

وياسم الإسلام استولى الجيش العثماني على العديد من مدن شرق أوروبا ومن أبرزها صوفيا عاصمة بلغاريا التي تم الاستيلاء عليها في عام ١٧٨٧هـ/١٣٨٥م^(٣). ويواسم الإسلام استمرت الفتوحات العثمانية في البلقان وتسلطت منها أمام ضريبات العثمانيين ، ووصل العثمانيون إلى النمور وأخضعوها لحكمهم وأصبحت معظم بلاد البلقان تحت الحكم العثماني^(٤).

١. ويواسم الإسلام فتح محمد الثاني القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية في عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م مصداقا للحديث الشريف "تفتح القسطنطينية فلتعم الأسير أبرها ولتعم الجيش ذلك الجيش"^(٥) ذلك الفتح الذي يعد نقطة تحول فاصلة ليس فقط في تاريخ العثمانيين^(٦) بل وفي تاريخ الصراع بين الصليبية والإسلام فبعد هذا الفتح المبين أمر محمد الفاتح أن يؤن فيها ، واتجه إلى القلعة وصلى كما حول كاتدرائية آيا صوفيا إلى مسجد وأطلق على القسطنطينية اسما إسلاميا جديدا وهو إسلامبول^(٧) بمعنى عاصمة الإسلام ، وفي محمد الفاتح مسجدا كبيرا يحمل اسمه ، كما بنى عشرة مساجد أخرى^(٨) ألحق بها مدارس للتعليم ومستشفيات للقراء ولم تتوقف جهود الفاتح على ذلك بل استطاع القضاء على الإمارات المسيحية في الألبانول ، وتحويل آسيا الصغرى كلها

- ١- أرئوك توباي: تاريخ البشرية ج٢ - ترجمة غولا زيادة ، بيروت ، الألفية للنشر ١٩٨٨م ص ١٨٧.
- ٢- أحمد عبد الرحيم مصطفى: في أصول التاريخ عثمانى ، بيروت، دار الشروق ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ص ٤٨-٥٠.
- ٣- عبد الكريم رافق : العرب والمسلمون ١٥١٦-١٩١٦م ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٧٤م ص ٣٤.
- ٤- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة نبيه أمين فارس ومدير الطبعة ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٨٤م ص ٤٢٧-٤٢٨.
- ٥- ورد في مسند أحمد ، وفي مسند غيره (محدث مسعود) وانظر أيضا جلال الدين السيوطي: جامع الصغير في أحداث البشر الثغر ، المسند الثاني ، بيروت ، دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ٤٠٦ رقم ٧٢٢٧.
- ٦- سواد مصطفى : شرح السابق ص ٩.
- ٧- حدثت القسطنطينية على مر تاريخها أسماء عديدة منها إسلامبول وإستانبول ودار السعادة ودار السكينة والأشقة.
- ٨- منها مسجد "لو أوب الأصرار" انظر دليل الأمانة ص ٣.

إلى مناطق عثمانية .

وياسم الإسلام شرع هذا السلطان ينفذ مشروعاً خطيراً وهو الاستيلاء على روما مقر البابوية مقسماً أن يقدم الطعام بيده إلى حصانه وهو ولف على منح الكنيسة البابوية في روما معاً أُرْجِع العالم المسيحي كله الذي لم يتلفس السعداء إلا بعد وفاة هذا القائد المسلم في عام ٨٨٦هـ/١٤٨٦م .

وياسم الإسلام تحدثت مظاهر الطابع الإسلامي في السيادة العامة للدولة العثمانية بدءاً بالمراسم التي كانت تتخذ عند توليد السلطان العثماني عرش السلطنة حيث كان السلطان الجديد يتسلم عرش السلطنة في موكب رسمي يتجه إلى مسجد أبي أيوب الأنصاري ، ويتسلم في جو دلي سيف الجد الأكبر للسلطان العثماني السلطان عثمان الأول^(١) .

وياسم الإسلام ترد في القوانين العامة التي أصدرها السلطانين ، وفي مراسيم التنظيمات العثمانية ما يؤكد حرص الدولة على الظهور بمظهر المدافع عن الشريعة الإسلامية والمقتضى لأحكامها^(٢) .

وياسم الإسلام استولى السلطان سليمان القانوني على الجزائر وروني وبودايست ووصلت قواته إلى فيينا آخر نقطة وصل إليها العثمانيون في فتوحاتهم بأوروبا^(٣) .

وياسم الإسلام قدم السلطان العثماني أبو يزيد الثاني ١٤٨٠-١٥١١ للمعركة للسلطان المملوكي قائلصوة الغوري بعد تسلطه لسلطته في موقعة ديق البحرية فامده بالأسلحة والأخشاب اللازمة لبناء أسطول جديد ، وتمهيز حملة أخرى لمواجهة البرتغاليين استغللاً للأماكن الإسلامية المقدسة^(٤) ، كما انضم إلى الأسطول المملوكي بعض البحارة والضيابط من الأسطول العثماني للوقوف معاً ضد البرتغاليين^(٥) .

وياسم الإسلام أوقعت الدولة العثمانية المخطط الملبس الذي كان يستهدف دخول البرتغاليين البحر الأحمر ، والاستيلاء على جدة والزحف على مكة المكرمة لهدم الكعبة

١- كارل بروكلمان : الأثر العثماني وحضارتهم ، بيروت ، ١٩٤٩ ص ٤٦ .

٢- أحمد قويدر : حركة الجامعة الإسلامية ، الزرقاء ، الأردن ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ ص ١٤ .

٣- أحمد محمود الشاذلي : تاريخ الفول الإسلامية بأشيا وحضارتها ، القاهرة ، دار الثقافة للطباعة والنشر ١٩٧٩م ص ٢٥٥ .

٤- ابن نيس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٢ ص ٢٠١-٢٠٢ .

٥- محمد عبد المنعم الرفاعي : الفلج العثماني لمصر وتناجيه على فوغلان البحري ، القاهرة ، مؤسسة شباب الجامعة ص ١٢٣-١٢٤ .

المشرقة ، ثم مواصلة الزحف منها على المدينة المنورة لتبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ومواصلة الزحف إلى بؤرك وصولاً إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى وبقية الصحرة ، فقامت الدولة العثمانية بوضع خطة جديدة تمثلت في الخذل المواني اليونانية - خصوصاً عدن - خط دفاع لمهاجمة المراكز البرتغالية في الهند ، والتفاج عن سواحل البحر الأحمر ، كما استطاعت دحر الأسطول البرتغالي بالقرب من جدة عام ٩٢٢هـ ، وتحطيم كل المحاولات التي بذلها البرتغاليون لتكوين جبهة مسيحية ، وذلك بالتحالف مع الأحيائي ضد القوى الإسلامية في البحر الأحمر وشرقي إفريقيا^(١) .

وباسم الإسلام قامت الدولة العثمانية بتوحيد أقطار العالم الإسلامي في إطار سياسي واحد ، وتأليف جبهة إسلامية واحدة بعد أن كانت كيانات متنافرة ، وتكاد تكون متعادلة بين بعضها منذ أن تأسست الوحدة الإسلامية نتيجة ضعف الخلافة وسقوطها في عام ٦٥٦هـ على يد المغول^(٢) ، وأصبحت رابطة الدين هي الرابطة الأساسية بين البلاد العربية بعضها مع بعض وبين الدولة العثمانية .

وباسم الإسلام اعتنت الدولة العثمانية بأمور الحجاز - وكان من أبرز مظاهر ذلك هو اهتمامها بالأماكن الإسلامية المقدسة - حيث به قبلة المسلمين ، ومهبط الرسالة ، ومنازل الوحي ، وملئى قلوب المسلمين بقد أمر السلطان سليم الأول بوضع ثلث ما كان يجازي من مصر للإعاق على خدمة الحرمين الشريفين ، كما أنشأ لهذه المهمة أيضاً خراج اليونان مما أضفى على البلاد الحجاز مركزاً دينياً مرموقاً ، كما أولت الدولة العثمانية قوافل الحج والأتراق عليها ، وتيسير الحج أمام الزائرين فيه اهتماماً خاصاً فاعتنت بالطرق ، وحطرت الأبار على طول طرق الحج ، وكلفت المخافر ، وكانت تشرف على قواعد الحج الرئيسية التي كانت تخرج من كافة أنحاء الدولة في مواعيد محددة^(٣) .

وباسم الإسلام تكفلت الدولة العثمانية لتجدة أهالي الخليج العربي الذين طلبوا منها المعاونة في عام ٨٥٧هـ/١٥٥٠م لمواجهة الخطر البرتغالي على بلادهم ، فبعث السلطان سليمان القانوني بحملات منظمة من السويس إلى الخليج العربي لمعاونة إخوانه في الإسلام ، وسار على نهجه بقية السلاطين من بني عثمان حتى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م

١- تشنوي : المرجع السابق ج ١ ص ٢١ -

٢- ركن الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، دار المعارف ، طبعة الأولى ١٩٧٥م ص ٣١ .

٣- مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية : قضية الحرمين الشريفين ، القاهرة ، حوزة الطباعة والنشر ، مقال الدكتور مصطفى العربي تحت عنوان قوافل الحج إلى الدولة العثمانية ص ٦٣-٦٤ .

واستطاعت هذه الحملات أن تنزل العديد من الهزائم بالبرتغاليين^(١).

وباسم الإسلام وقعت الدولة العثمانية عند الأملح البرتغالية وحالت دون تحقيقها في أرض الإسلام وذلك بعد أن عجز العماليك وغيرهم من الوقوف أمام تهديدات البرتغاليين خصوصاً بعد معركة ديو البحرية ١٥٠٩م فكانت بإغلاق البحر الأحمر في وجه السفن الصنوبرية ، ولم يسمح لها بتسيير سفنها في القسم الشمالي من البحر الأحمر ، أو بالإبحار في هذا البحر فيما وراء ثغر الملا جلوبى الجديدة في اليمن ، وكانت ذريعتها في ذلك أن أهم الأماكن الإسلامية في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز ، ويطل ساحل هذا الإقليم على البحر الأحمر ، لذلك يجب ألا تجر منه غير السفن الإسلامية^(٢) ، وظلت الدولة العثمانية متمسكة بذلك الموقف حتى أواخر القرن الثامن عشر^(٣) ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية قدمت أعظم خدمة للإسلام حيث وقعت في وجه الزحف الصليبي البرتغالي للبحر الأحمر والأماكن الإسلامية المقدسة ، وكانت ملجأ للعالم الإسلامي وقت العاتات .

وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة عرب شمالي أفريقية في الصراع الصليبي مع الأسبان والبرتغاليين الذين حاولوا اختلال هذه الأقاليم وتحويلها إلى المسيحية فأعلن السلطان سليم الدعوة إلى الجهاد في شمالي أفريقية وأمر بتكوين كتائب المجاهدين^(٤) حتى استقرت الأمور للإسلام والمسلمين هناك .

وباسم الإسلام ساعدت الدولة العثمانية أهالي طرابلس في مقاومة الخطر الصليبي على بلادهم بعد أن أرسلوا إلى السلطان سليمان القانوني يلتمسون منه للتدخل لإنقاذهم لتحرير بلادهم من الأسبان الذين استولوا عليها^(٥) وفرسان القديس يوحنا الذين استهدفوا تغيير الوجه الإسلامي لبلادهم . وقد أرسل السلطان سليمان قواته لمحافظة على هذه البلاد العربية الإسلامية^(٦) حتى استقرت الأمور هناك .

١- نوال الصوري : سقوط البرتغالي في الخليج العربي ، الرياض ، دار الشك عبد العزيز ، ١٤٠٣هـ/ ١٤٤-١٤٥ .

٢- قشوري : المرجع السابق ج٢ ، ص ٦٩٨-٦٩٩ .

٣- محمد آيس : دولة العثمانية وشرق العربي ، القاهرة ، الأملح المصرية ١٩٨٥ ص ١٢٨ .

٤- عبد الكريم رفاق : المرجع السابق ص ٧٦-٧٧ .

٥- قشوري : المرجع السابق ج٢ ص ٦٢٨-٦٢٩ .

٦- مجلة التاريخية المصرية : العدد الخامس والستون ١٩٧٨ مقال الدكتور ناصر سجنوني تمت طوى طبعة الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر ص ١٤٩-١٥٠ .

وباسم الإسلام قام العثمانيون بملاحقة فرسان القديس يوحنا ومطردهم من رودس^(١) ثم من ليبيا عام ١٥٥١م وكذلك قيامهم بكسر شوكة الأسبان في حوض البحر المتوسط الغربي^(٢).

وباسم الإسلام ولقت الدولة العثمانية أمام زحف الصفويين الشيعة الذين تمكنوا من الاستيلاء على العراق ، ونشر المذهب الشيعي في الأناضول ، وراحوا يضلون الناس قسرا على للتدخل في مذهبهم ، ولا يترددون في إنشاء مدن وأسرها ، والقضاء على العلماء والأعلام زرافات ووحداً حين يرفضون الاستجابة لدعوتهم ، ويتمسكون بالمذهب السني^(٣).

وكان من نتيجة ذلك قيام السلطان العثماني سليم الأول بغزو فارس والاتقاء مع الصفويين بوادي جالديران^(٤) في أواخر عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م في معركة رهيبة استطاع فيها العثمانيون هزيمة الصفويين في جالديران ودخول عاصمتهم تبريز^(٥) في ١٤ من رجب ٩٢٠هـ وختم ولائهم بيار بكر وكردستان إلى بلاد والاستيلاء على خزانة الشام والقضاء على المذ الشيعي في الأناضول^(٦) والعمل على احتساره في العراق ، وبذلك استطاع العثمانيون حماية المذهب السني من خطر الزحف الشيعي الذي كان يشاء اسماعيل الصفوي وأمل في نشره في كافة أنحاء المشرق العربي والقضاء على المذهب السني . ولم يكف العثمانيون بذلك بل خاضوا العديد من المعارك مع الفرس دفاعاً عن العراق الذي كان الفرس يتكلمون إليه دائماً ، ويرغبون في صيغته بالمسيحية الشعبية وأو بعد السيف^(٧) ، وبالرغم من أن ذلك كلهم العديد من الرجال والعناد^(٨) فقد تمكنوا من حصر المذهب الشيعي في فارس ، ولم يسمحوا بتسربه إلى البلدان العربية الواقعة تحت

١- وث تورفت : المرجع السابق ج٤ المجلد السادس ص ١٢٧ .

٢- رقت الشيخ : المرجع السابق ص ٣٣-٣٢ .

٣- أحمد السدائي : المرجع السابق ص ١٥٢ .

٤- يقع بين بحيرة أرمية وتبريز بأذربيجان .

٥- الشناري : المرجع السابق ج٢ ص ٩٦٤ .

٦- مما يذكر أن السلطان سليم قل لحو الأرمين قلاً من الشيعة ، نشر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية - تحقيق إحسان علي ، بيروت ، دار الفانس ، الطبعة الثانية ١٤٠٣/١٩٨٣م ص ١٨٩ .

٧- عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم دولة بasha إلى نهاية محمّد باشا ، القاهرة ، دار الكتب العربي ١٣٨٨/١٩٦٨م ص ٥ .

٨- السدائي : المرجع السابق ص ٢٥٥ .

سيطرتهم^(١)، وبذلك ظهر سلاطين الدولة العثمانية أمام العالم الإسلامي بمنزلة المدافع عن الشريعة الإسلامية، والحماة التقليديين للمذهب السني، وباسم الإسلام ضد الأتراك أنفسهم حراساً لدولة الإسلام وقد دفعهم ذلك إلى الاحتفاظ بحمايات في الأقاليم العربية التابعة لهم، وإذا كان الجندي العثماني لا يتميز بسرعة اندماجه مع الأهالي فخل طول مدة إقامة الحمايات العثمانية في عدد من الأقاليم البعيدة عن عاصمة الدولة، وخاصة في شمالي أفريقيا كان يسمح بلوغ من الاندماج والمصاهرة^(٢).

وباسم الإسلام أصدرت الدولة العثمانية بعد فتحها لمصر فرماناً بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء على أساس أنها تضم الرادى المقدس طوى الذى كتم فيه لله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام قتال تعالى: "وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا"^(٣)، وقال: أيضا "ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه"^(٤).

وسار سلاطين الدولة العثمانية على هذا المنوال حتى جاء الاتحاز وسيطروا على مصر في عام ١٨٨٢م فتغيرت الأوضاع^(٥) هناك.

وباسم الإسلام استولى العثمانيون على قسم كبير من الحبشة (١٥٢٩-١٥٤٢) في المعركة التي دارت رحاها بينهم وبين لقوات البرتغالية، والتي قاتلت فيها القوات العثمانية إلى جانب المسلمين، بينما قاتل البرتغاليون إلى جانب الأحياء وقد خرجت الحبشة من القتال وقد أسسها للدار وتأسس سكانها^(٦).

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثاني بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية خصوصاً وأن مبعث ولاء المسلمين للدولة العثمانية كان دينياً، حيث كانوا مكلفين شرعاً بولاية السلطان باعتباره الخليفة والأب الروحي للمسلمين، وتلقب رسول الله صلى الله

١- الشلوى: المرجع السابق ج٢ ص ٦٦٥.

٢- جلال بى: المغرب الكبير ج٢، القصور الحثلية وهجوم الاستعمار، بيروت، دار النهضة العربية ١٩٨١م ص ٧٠٠.

٣- قصص: الآية ١٦٤.

٤- الأعراف: الآية ١٤٣.

٥- الشلوى: المرجع السابق ج٢ ص ٦٦٦.

٦- تويني: المرجع السابق ج٢ ص ١٨٩.

عليه وسلم ، وعلمهم أن يسمعوا له ويطيعوا^(١) . ومن هنا رأى السلطان عبد الحميد الثاني استخدام هذا الولاء في حماية البطان الإسلامية من الأخطار التي تحيط بها ، ولقد أضافها من حالة التسليح والركود الذي تغلغل بين أفرادها فدعا إلى جامعة إسلامية تجمع بين المسلمين مهما اختلفت لغاتهم وبلادهم .

وباسم الإسلام قام السلطان عبد الحميد الثاني بإنشاء سكة حديد الحجاز الذي يصل دمشق بالمدينة المنورة . وبذلك شهدت الأراضي الإسلامية المقدسة لأول مرة في التاريخ 'خطاً حديدياً' يخدم حجيج بيت الله الحرام ، ويوفر لهم الأمن والسرعة والراحة بعد أن كانوا يستقدمون قوافل الجمال ويعرضون للعديد من المخاطر ، فكان ذلك أنظم هدية قدمها السلطان عبد الحميد للمسلمين^(٢) .

وباسم الإسلام وقف السلطان عبد الحميد الثاني ضد استيطان اليهود في فلسطين ، فعندما عرض عليه هرتزل حل أزمة المالية في تطوير السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين^(٣) رفض طلبه وحسم الموقف معه بقوله 'إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهي ليست ملكي يعني بل ملك شعبي ، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ، ورواها بدمه ، فليحفظ اليهود بملاييلهم'^(٤) .

ولإحساس السلطان عبد الحميد بعدم توقف الضغوط اليهودية عليه بدأ يهتم بالأوضاع الإدارية في بيت المقدس فجعلها متصرفية تابعة لتياب العالي مباشرة بعد أن كانت تابعة لباتشا دمشق ، كما عين محمد شريف رحوف باشا المشهور بشدة متصرفها على القدس^(٥) . ويضاف إلى ذلك أن الدولة العثمانية حافظت على تقاليد الخلافة السابقة في اعتمادها على القرآن كمصدر للتشريع وإن كانت تحيد عن بلوذه في بعض الأحيان^(٦) . كل ذلك جعل العلم الإسلامي ينظر إلى أعمال العثمانيين على أنها مفعلة للإسلام والمسلمين .

هذا عن مشارب الدولة العثمانية فماذا عن مثاليها .

١- محمد شافق غريال : تاريخ المفارقات المصرية البريطانية ج ١ ، القاهرة ، القهضة المصرية ١٩٥٢م ص ٢٠ .

٢- قشيري : المرجع السابق ج ٢ ص ١٣٢٥-١٣٢٦ .

٣- قشيري : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٨٨ .

٤- عبد الحميد الثاني : مذكراتي الشخصية ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠٢هـ ص ٢٤ وما بعدها .

٥- سيد مصطفى : المصادر السابق ص ١٠ .

٦- قشيري : المرجع السابق ج ٢ ص ٩٧٥-٩٧٦ .

الواقع أن هناك العديد من المآخذ التي أخذت على العثمانيين مثل عدم لوجيتهم لأهل الأندلس خلال سقوط غرناطة ، ونظام الحكم العثماني سواء في داخل مقر السلطنة أو في الولايات العربية ، وضعف اللغة العربية وضياع هبة العلماء ، والمأسي التي ارتكبت في أواخر الحكم العثماني ضد العرب خصوصاً بعد ظهور التحركات القومية كالطورانية أو غيرها ولها ما يلي نعرض لذلك :

١ - عدم تهيئة أهل الأندلس خلال محنتهم :

تتمثل الدولة العثمانية بسلطانها كبر دولة إسلامية وقت سقوط الأندلس مستغلة عدم تقديم النجدة للفرساطيين الذين نالوها مساعدتهم عسكرياً في صراعاتهم من أجل البقاء ، والمحافظة على الدين والملة ، فقد أرسل أهل غرناطة في منتصف عام ١٤٧٧م إلى السلطان محمد الفاتح يطلبونه التدخل لإنقاذهم ولكنه كان مشغولاً عنهم^(١) ، كما استبعد الفرانجليون بالسلطان بي يزيد الثاني ١٤٨٠-١٥١١م ولكنه لم يقدم لهم النجدة^(٢) .

٢ - التشاؤم على وراثة العرش وتناقل الأسرة المالكة العثمانية :

إن نظام التوارث على العرش يكون له أثر كبير في استقرار أمور الدولة إذا بني على أسس ثابتة ومعروفة ، أما في الدولة العثمانية فإن هذا النظام كان في حاجة إلى النظام في الفترة الأولى من عصر السلاطين كان نظام الوراثة يقوم على أساس انتقال العرش من الابن للبكر إلى الأكبر فالأصغر من الأبناء ، وهكذا فإن إخوة السلطان وأبناءهم الذين يخرجون من السلطنة بمقتضى هذا النظام كانوا كثيراً ما يقتسمون الفرص لخروج على السلطان أملاً في استخلاص العرش لأنفسهم ، يقال ذلك أن السلطان القم كان ينفذ لفته بإخوته ولا يتورع عن قتلهم بهم ، ثم جعل نظام الإرث في عهد السلطان الرابع عشر أحمد الأول ١٦٠٣-١٦٢٧م فأصبح العرش ينتقل من الأكبر فالأصغر من إخوة السلطان بدلاً من نقله إلى الأكبر فالأصغر من بعدهم^(٣) ، ثم تغير هذا النظام بأن أصبح للسلطان الحاكم الحق في أن يختار من يخلقه من بين أبنائه أو من إخوته دون أن يتقيد بالاختيار الابن أو الأخ الأكبر من أدى إلى ظهور روح التشاؤم ، وفيها المزاومات داخل القصور السلطانية لإبعاد أمير عن العرش أو تقريب أمير آخر منه ، وكانت هذه المزاومات تكن غالباً من زوجات السلطان الثلاثي لنجب أولاداً منه رغبة في أن يكون

١- تشاؤم : المراجع السابق ج ٢ ص ٨٩٨ .

٢- هناك من ينكر أن السلطان بي يزيد الثاني أرسل أسطولاً لخدمة أهل الأندلس ولكن ذلك لم يثبت تاريخياً .
نظر مثقال ابن بول : الدول الإسلامية - ترجمة محمد صبيح قرزلت - قسم الأول ، دمشق ، مكتب الدراسات الإسلامية ص ٦٤ .

٣- بهم : المراجع السابق ج ٢ ص ١٧٠ .

أينهن وأيا للعهد ، ونظرا لهذا التصارع للوصول إلى السلطة كان الإبن الذي يصل إلى منصب السلطة كثيرا ما يقوم بقتل جميع منافسيه ، أو يفرض عليهم أن يظلوا سجناء في قصورهم لا يخالطون أحدا ومن غريب الأمر أن يصدر السلطان محمد الفاتح قانونا حول بقتضائه السلطان الذي يتولى العرش بأن يقوم بقتل أخوته تأمينا لسلامة الدولة وأمنها القومي^١ ، وقد عبر محمد الفاتح عن ذلك ضراحة في سجل القوانين بقوله "إن خافية المشرعين أخذوا أن التامعون من أبنائي الذين يتولون العرش يكون لهم الحق في إعدام إخوتهم تأمينا للسلام في الدولة وعليهم أن يعملوا طبقا لهذا" وبهذا حكم محمد الفاتح في هدوء بالإعدام على السلالة الملكية ما عدا إكبار منهم ، وشاة سيلة أخرى من سيات هذا النظام وهي أن ممتلكات المحكوم عليهم بالإعدام كانت تؤول إلى السلطان مما شجع العديد من السلاطين على ارتاف هذه الجريمة^٢ .

أي صلات رجم هذه التي يقوم فيها الأخ بقتل إخوته خشية على سلطته ؟ ثم جاء بعد ذلك دور الإنكشارية في التمثيل بالسلاطين أنفسهم وعزائهم والتصويب من يجدون فيه عونا لهم وذلك منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، ولبرز الأمثلة على ذلك أنهم قاموا بقتل السلطان مصطفى الأول ، وقتلوا عثمان الثاني وإبراهيم الأول^٣ .

٣ - زواج السلاطين العثمانيين من الأجنبية :

لقد سمح الإسلام للرجل المسلم بالزواج من النصرانية أو اليهودية طبقا لقوله تعالى : "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمختصات من المؤمنات والمختصات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا عاتبتموهن أجورهن محضين غير مستغنين ولا ممنهجن" أخذوا ومن يكافر بالإيمان فيه حبط عمله ، وهو في الآخرة من الخاسرين^٤ .

ولكن قد يقتضى الأمر أحيانا عدم الزواج من الكنائيات خشية تسرب أسرار الدولة إلى أعدائها من اليهود والنصارى ، وقد يقتضى الأمر أيضا زواج السلاطين من الكنائيات لمصالح سياسية فمثلا كانوا يتزوجون من بنات الملوك والأمراء النصارى أو اليهود ليكسروا ودعهم .

١- كنانى : المرجع السابق ج١ ص ٣٤٦-٣٤٩ .

٢- ول بيركات : المرجع السابق ج١ السجاد السادس ص ١١٥ .

٣- هيم : المرجع السابق ج٢ ص ١٨ .

٤- سورة المائدة : الآية ٥ .

وعلى الرغم من أن المؤسسين للفتحين من آل عثمان قد اختاروا الزواج من الأجنبيات لغايات سياسية ، وثأمين العصبية فانه «رعان ما تطورت الأمور وأصبحت تصور السلطان آهنة بالجواري والمرارى الأجنبيات اللاتي تظاهرن بالإسلام ولكنهن في الواقع لن ينسبن أوطانهن الأولى ولا قومتهن السابقة فاستقلان وضعهن في التقصير السلطاني واعتمدن بخدمة أوطانهن الأصلية على حساب الدولة العثمانية»^(١). وقد لوتهن من التمسك لوتنا أدت بعد الدولة ، وسودت صفحات عواطفها مما كان له كبير الأثر في تفسخ الأسرة العثمانية الثالثة وإنعكاف شأنها^(٢) ، وأبرز الأمثلة على ذلك أن السلطان سليمان القانوني ضم إلى حريمه نحو ثلاثمائة جارية كهن مشائيات من الأسواق أو أسيرات في الحرب ، ومعظمهن من أصل مسيحي^(٣) ، يضاف إلى ذلك انه كانت له حظيرة تركسية تعرف باسم «وردة الربيع» أنجبت له طفلاً اسماً مصطفى ، وعهد إليه بعدة مناصب ، وتربيه ليكون وريثاً للعرش^(٤) ، ثم فجأة شغف بروكسلاته الروسية التي اقترعته من حظيرته التركسية فقتلها زوجة له ، وقتل ابنه وولى عهده مصطفى إرضاء لها بعد أن حبكت له مؤامرة - شاركها فيها رستم باشا الصدر الأعظم^(٥) - أوعرت فيها صدر أبيه عليه ، وعين ابنه سليم من بروكسلاته ولها للتعهد بدلا من أبيه الأكبر^(٦) .

يضاف إلى ذلك أن هذه المرأة استطاعت حبب زوجها السلطان عن قيادة الحملات الحربية بعد أن كان وجوده في ساحة القتال يؤثر حماس الجنود ويذهب مشاعرهم^(٧) . وسار من جاء بعده من السلاطين على مثاله مما أدى إلى فتور حماس الجند ، كما بدأ القصد يندب في صفوف الإنكشارية الذين كانوا قد اعتكروا على أن لا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود حملتهم . يضاف إلى ذلك أن السلاطين أصبحوا في معزل عن معرفة لحوال قوائهم ، ومدى ما وصلت إليه من قوة خصوصاً وأن الحاشية السلطانية كانت تحجب عن السلاطين الأمور التي لا تريد أن تصل إلى مسامعها^(٨) .

١- قشتالي : المرجع السابق ج١ ص ٤٠ .

٢- بيهم : المرجع السابق ج١ ص ١٢ .

٣- ول نورغات : المرجع السابق ج١ المجلد السادس ص ١١٧ .

٤- نفسه ص ١٢١ .

٥- قلت بروكسلاته في روع زوجها سليمان أن ابنه مصطفى يدور أن يكسب شعبية تطلعا منه إلى التزاع العرش ، كما أنهم رستم باشا مصطفى بأنه يولد سرا إلى الإنكشارية ينفوا بجانيه ضد أبيه مما جعل فتك بساور السلطان فامر بقتل ابنه . انظر ول نورغات : المرجع السابق ص ١٢٧ .

٦- قشتالي : المرجع السابق ج١ ص ٦١٧ .

٧- نفسه : ص ٦١٤ .

٨- بيهم : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢ .

٤ - الاعتماد على الإنكشارية :

اعتمدت الدولة العثمانية في صليتها للتجنيد على جميع أبناء العائلات الأرثوذكسية خصوصا من البلقان فكانت ترسل وكلامها إلى هذه المناطق حيث يطلبون من قسيس القرية كشفا بأسماء الأطفال الذكور الذي قام بتعميدهم ثم يقومون بجمعهم ، ويخرجون بهم إلى الأستانة حتى تنقطع صلاتهم بنويعهم نهائيا^(١) . وقد عرفت هذه العملية باسم "الدفشirme"^(٢) Devshirme أو ديوشيرمة وهي كلمة تركية تعني ضريبة القلغان . وقد أعدت الدولة هؤلاء القلغان ليكونوا فرق مشاة في الجيش العثماني ولطلق عليهم الإنكشارية^(٣) . وقد قامت هذه القوات بدور رئيسي في الفترات العثمانية وسار لا يحول إلا عليها في الحرب ، ولما أخذت الدولة العثمانية تمر في مراحل الضعف ترك الحيل على الغارب لزهاء الإنكشارية حتى تمكنهم نولهم وتزايد لدرجة أنهم خرجوا عن حدودهم وتعدوا واسكنوا وأصبحوا عبئا ثقيلا على السلاطين أنفسهم خصوصا بعد أن صار بمقتورهم تنصيب السلاطين أو خلعهم^(٤) . يضاف إلى ذلك قيامهم في العديد من المرات بالتمرد ، وسلب أموال الأهالي ، وإشغال القيران في ممتلكاتهم وإحراق المنازل والاعتداء على من فيها ، واعتراض مواكب السلاطين^(٥) والتدخل في سياسة الدولة العليا، هذا إلى جانب قتلهم للشرعية وتمزيق القرآن أثناء ثورتهم ، وإهمال الصلاة ، وشرب الخمر^(٦) ، واستلمت الأحوال على ذلك حتى تمكن السلطان محمود الثاني من القضاء عليهم بقتل أغلبهم في ٩ ذي القعدة من عام ١٢٤١ الموافق ١٦ يونيو ١٨٢٦م دون أن يجد البديل الذي يستلوع حماية أراضي الدولة العثمانية والدفاع عنها ضد أعدائها .

١- تفاصيل ذلك انظر :

H. Grb and H. Bowen : Islamic Society and the west, vol 1 pp. 56-60 .

٢- عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي ١٥١٦-١٩٢٢ ، بيروت ، دار النهضة العربية ص ٤٢ .

٣- معادها الجلود الجند ، وقصة هذه الكلمة أنه لما صار لدى السلطان أورخان عدد ليس بقل من هؤلاء الجند ، صار بهم إلى شيخ طريقة البكاشية يدعو لهم بغفر ، فعدا لهم هذا الشيخ بالقصر على الأعداء وقال فيلكن اسمهم (إلى تشاري) أي الجيش الجديد ثم حرف هذا الاسم في العربية فصار إنكشاري . انظر محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، بيروت ، دار الجيل ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص ٤٢ . انظر

أيضا توباي : المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٨ .

٤- سيد مصطفى : المصدر السابق ص ١٠ .

٥- تفاصيل ذلك انظر تشاري : المرجع السابق ج ١ ص ٤٩٤-٤٩٩ .

٦- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢٦٨ .

٧- محمد فريد : المرجع السابق ص ٤٢ .

٥ - عدم مساهمة الدولة العثمانية للتطور في أنظمة الحكم وأحداث عصر النهضة؛

لم تعمل الدولة العثمانية على تطوير أنظمتها في الحكم والإدارة فظلت أنظمتها جامدة في حين أخذت أوروبا في تطوير أجهزتها الحكومية منذ عصر النهضة مما أوجد فجوة حضارية بينهما .

ونتيجة لذلك أخذت الشعوب المسيحية التابعة للعثمانيين تتطلع إلى الانفصال ، وبدأت الدول الأوروبية تتدخل من أجل لتقسام أملاك الدولة العثمانية^(١) فدعت إلى عقد مؤتمرات دولية بحث ما أطلق عليه المسألة الشرقية .

يضاف إلى ذلك أن العثمانيين لم يساهموا بتطويرات عصر النهضة في أوروبا مما جعل فجوة الحضارية شديدة الاتساع بين الشرق والغرب ، ولظهر عبء العثمانيين عن متابعة هذه التطورات .

٦ - الاعتماد على غير المسلمين في تدبير أمور الدولة العامة :

فقد وجد اليهود والنصارى عند السلاطين العثمانيين منبرا رصحا إذ اعتمدوا عليهم في جميع أجهزة الدولة خصوصا المناصب الكبرى منها فشكل هؤلاء غالبية الهيئة الإدارية في الحكومة العثمانية^(٢) ، كما أسند إليهم قيادة الجيوش ، ووصل بعضهم إلى منصب الوزارة والأمانة على ذلك متعددة تذكر منها أن السلطان بايزيد الأول ١٣٨٨-١٤٠٣م قد ولي الأمير سيمسان ابن ملك البلغار على ولاية صمصامون ، يضاف إلى ذلك أن الباب العالي اعتمد في اختيار وزرائه على الأوربيين حيثى العهد بالإسلام لا سيما الأتراك^(٣) . وإلى جانب ذلك فإن العثمانيين سمحوا لليهود العودة بولوى الوظائف الهامة في الدولة ، مما كان له أكبر الأثر في ضرب الإسلام وتهديم كيانه من الداخل خصوصا بعد أن ليس هؤلاء ليس الإسلام وعاشوا بين المسلمين يظهرهم لهم العودة في حين كانوا في السابق يندرون لهم المؤامرات ، ويكونون التنظيمات المعادية للإسلام بهدف اقتلاع الحكم الإسلامي من جذوره وقد ساعدتهم على ذلك صلتهم الوثيقة بحكومة الاتحاد والترقي التي استولت على الحكم بعد خلع السلطان عبد الحميد

٧ - المعاسي التي ارتكبتها العثمانيون ضد العرب :

ارتكب العثمانيون العديد من المعاسي ضد الشعوب العربية بطريقة ترمد حكمهم إلى حد كبير عن روح الإسلام ومبادئه . فقد كانوا في كثير من الأحيان يشعرون بميزة

١- تشفاري : المرجع السابق ج٢ ص ١٨١-١٨١١ .

٢- ول نيورات : المرجع السابق ج٢ لمبدأ قانس ص ١١٦ .

٣- بهيم : المرجع السابق ج٢ ص ٣٩ .

مستواهم المستمدة من سلطة طغماهم على حين كان العرب يشعرون بأنهم أصحاب البلاد الأصليين والأئمة على ذلك متعددة وواضحة ذكرها بعض شهود العيان ومن هؤلاء المؤرخ ابن أبي شادي الذي قال عن جنود السلطان سليم بعد دخولها إلى بلاد الشام إن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفلوجة من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم في الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار وطردوا الناس عن بيوتهم وسكنوا بها وأخربوا غالب بيوت الشام وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر^(١) . وقال بعد دخول القوات العثمانية مصر إن ابن عثمان هتك حريم مصر وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أهلها ويتم أهلها ، وأسر رجالها وبند أحوالها ولطهر أهلها^(٢) . يضاف إلى ذلك أن ابن عثمان كان يتحجب عن عسكره أيضا لا يظهر فيها وفي هذه المدة يقتل العسكر خلقا في المدينة ، ويتجاهرون بالمعاصي والفسوق ، وأتاهم لا يسومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة ، ويستعملون فيه المشيش والتشبيب ويقعلون الفاحشة في المساجد المرد في شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يسلي الجمعة إلا قليلا . وقد أثبتت عن ابن عثمان هذه الأخبار الشبهة^(٣) .

وذكر المؤرخ المصري عبد الرحمن الجبرائي مقاصد الجند العثماني بقوله أن يكون ويشربون جهارا في نهار رمضان ، ويشربون المشيش والمسكرات ، ويؤنون ويوطنون ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارا في نهار رمضان وأياها^(٤) . وأوضح محمد الأديسي - أمير منطقة المصالح السليمانية - مقاصد الأتراك العثمانيين بقوله أنهم كانوا يستبجرون الحرم ، ويملكسون الأعراس ، ويتجاهرون بالمعاصي والفروج عن الحدود التي حددها الله ورسوله غير مبالين ولا متكئين فلا الصلاة يؤنون ولا لشهر يسومون ، ولا هم في حكمهم يعدلون^(٥) . كل ذلك جعل الأتالي ينفرون منهم، كما ذكر الأديسي أن العثمانيين كانوا يقاتلون الرثوة ، ويحلقون العرب ولقتهم هذا بالإضافة إلى إهمال جميع المصالح العامة وإهانة رجال الدين^(٦) .

١- ابن أبي شادي : المستدر السابق ج٣ ص ١٤٤ .

٢- نفسه ج٣ ص ١٤٣ .

٣- نفسه ج٣ ص ٨٢-٨٣ .

٤- عبد الرحمن الجبرائي : صغايا الآثار في التراجم والأخبار ج١ : القاهرة ، المطبعة الشرقية ١٣٧٢هـ .

٥- ٣١٨ ، ٣١٩ .

٦- محمد الأديسي : هذا بيان للناس وموعظة للعالمين : رسالة إلى منبئ له في مصر بتاريخ ٦ ربيع الثاني ١٢٣٠هـ .

٧- نفسه .

بمضاف إلى ذلك أن الإدارة العثمانية لم تعمل على إيجاد أي باعث حقيقي لإسعاد رعاياها بل التقسم أبناء الدولة إلى حكام ورعايا ، كما انتشرت الرشوة في كافة الأوساط الحكومية لدرجة أنه كان هناك ممارسة للوزراء خصوصا في أيام عبد الحميد الثاني ينتشرون في الولايات ، ويعقدون الصفقات في شئون الدولة^(١) مما كان له تأثيرات سلبية خصوصا على المجتمعات العربية أدت في نهاية الأمر إلى عدم شعور الأهالي بالولاء للدولة العثمانية^(٢).

ومن مساوئ النظام الدولة العثمانية لحكم البلاد العربية ما يلي :

١ - أن الوالي الذي كان بمثابة نائب السلطان في البلد الذي يحكمه وكان تعيينه غالبا لمدة عام واحد مما جعل الولاة لا يهتمون بالأمور ولا يهتم بل كان جل همهم هو جمع الأموال لأقربهم والاعتصاف عن المشروعات العمرانية والإنتاجية التي تتطلب متابعة متوالية لاستثمارها^(٣).

٢ - انتشار الرشوة بين أفراد الديوان الذي كان بمثابة الهيئة الحكومية العليا نتيجة لتبني موظفي الإدارة العثمانية بعض الأفكار الخاطئة عن اختصاصهم فصار التقليد المتبع هو الحصول على الترقية بالرشوة والمحسوبية ، كما طرحت المناصب الإدارية والمدنية والامتيازات والرتب في المراتب العليا ، وساد الاستئثار بين موظفي الدولة والجلد الذين فقتوا بقتريج المال الأخلاقي التي كانت قد بدت واضحة عليهم في المراحل الأولى من الحكم العثماني ، فالباشا الصالح في نظرهم هو الذي كان يرسل المبالغ المعينة التي تتطلبها خزينة السلطان ، وكانت هذه هي أول خطوة نحو الرشوة فقد عمل الولاة على الاستفادة من وجودهم في مناصبهم ، ولعويض ما دفعوه من رشاوى هذا بالإضافة إلى تكويتهم للثروات الشخصية^(٤).

٣ - تركيز السلطة في أيدي بعض الزعماء المحليين الذين حاولوا الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية مما أدى إلى سلسلة من الاضطرابات والانقسامات داخل الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية^(٥).

٤ - لجوء الدولة العثمانية إلى طريقة الالتزام حتى تتمكن من تأمين الأموال اللازمة لها خصوصا وأن الملتزمين كانوا يجمعون من الأهالي ما يفوق الأموال التي

١- بهم : المرجع السابق ج٢ ص ٤٤ .

٢- راجع تشيخ : المرجع السابق ص ٣٧-٣٧ .

٣- جلال بدي : معالم العرب الحديث ، الاستشرية ، دار المعارف ١٩٧٤ م ص ٥١ .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ١١٧ .

٥- نفسه : ص ١٢٦ .

كانت تطلبتها الدولة : فكان الملتزمون كثيرا ما يقرضون الأموال من مصارف استبول برأ فاضل بغية تأمين المبالغ المقررة عليهم دفع الرشوى للمسؤولين حتى يقع عليهم الاختيار فإذا بالغوا مقرر ولايتهم نقلوا في استنزاف الأموال من الأهالي فكانوا يقرضون الخراب الباهظة ، ويطلبون أيديهم في ممتلكات الأهالي ، ولا يتورعون عن المضاربات ، وتهاجم الأبرياء بالجنائيات بغية استنزاف الأموال مما أدى إلى تخريب القرى والقطاعات من جراء المظالم التي ارتكبت والاعتداءات ووقوع الأهالي في شرك القتل والمظالم^(١) ، وبقيت الأمور تنحصر على الأحياء ، فقد قرر رجال المستور من العثمانيين استيفاء ضريبة على دفن الموتى^(٢) .

• - عدم اهتمام العثمانيين بتواحي التعليم والصحة والعمران في البلدان العربية خصوصا وإن فكرة الحكم عند العثمانيين كانت بسيطة للغاية وهي أن للدولة وظائف محددة لا يجب أن تتعداها وهي الدفاع عن ولايتها ، والحفاظ على الأمن وتحصيل الأموال أما فيما عدا ذلك مثل الاهتمام بالتعليم أو الرعاية الصحية أو توافي العمرانية فقد كانت الدولة العثمانية تعدها خارج نطاق مسؤوليتها وتركها للكفراد والجماعات .

وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية التي حكمت العالم العربي حوالي أربعة قرون ثم تترك فيه أي أثر من الآثار العثمانية لكثرة بذكر التاريخ لها فلم تهتم بالمعراق ، ولم يهتم الولاء العثمانيون بحفر ترعة أو إقامة جسر جديدة ، بل جلت بعض الترع القديمة لعدم تشييدها ، ونهارت الجسور القائمة لعدم العناية بها ، وأغلقت بعض المدارس التي كانت قائمة قبيل الحكم العثماني ، وبضرب إلى ذلك أن العثمانيين فرضوا على تشيطة العرب في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية جمودا بحيث لم يعد العرب يشاركون العالم بتشاطيع في هذه المجالات . وإلى جانب ذلك فقد تسبب العثمانيون في قتل النشاط الاقتصادي المزدهر في معظم البلدان العربية ، ويرجع ذلك إلى أن الدولة العثمانية لم تتدخل سريعا وبصورة جدية لضرب المعائل البرقراطية في الخليج العربي والهند إلا بعد نصف قرن من الزمان^(٣) تقريبا هذا إلى جانب أن العثمانيين نقلوا إلى بلادهم أكثر ما في القلعة وأكثر ما في منازل السلاطين والأمراء الممتلكات من الخفاير والنفوس والكتب وقد وصف ذلك أحد شهود العيان بقوله : «أكتبع ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل

١- فهم : المرجع السابق ج٢ ص ٤٧-٤٨ .

٢- كان مقدار هذه الضريبة خمسة ريالات وتقليصوا فنظر لعمد السباني : تاريخ مكة ج١ ، مطبوعات نادي مكة الثقافي ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ص ٥٦٠ .

٣- قشيري : المرجع السابق ج٣ ص ١٤٦-١٤٨ .

محطة ما بين ذهب وقنطرة هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والسيوف والكسب والمكتبات والخيول والبغال والجمال وغير ذلك حتى نقل منها الرخام القاهر^(١) .
يضاف إلى ذلك أنه نقل العمال المهرة من مصر إلى الأستانة^(٢) حتى أغلقت الكثير من الورش ، وفقدت مصر أكثر من خمسين صنعة^(٣) .

٦ - تدهور الدراسات الدينية والفكرية والنشاطات هيئة العلماء :

خلال الحكم العثماني للعالم العربي منقح حيز الدراسات الدينية نسبيا ، ولذلك لا نجد في العصر العثماني جماع العلماء من أجل إضافة أدباء جديدة تشد إلى رصيده ما جاء به تحول القهاء فيما يتعلق بالشريعة والفتاوى والإمامة ونظم الحكم بل تجمعت هيئة العلماء ، وتدهورت سمعتهم ، وزداد إهمالهم في سلوكهم لدرجة أن الوظائف العليا بينهم كانت تنحاز للأشخاص غير المؤهلين لتولي هذه المناصب^(٤) . يضاف إلى ذلك أن إهمال العثمانيين للغة العربية ، وسيطرة اللغة التركية عليها خاصة في دواوين الحكومة والمعاملات الرسمية قد أدى إلى شيوع العجمة في التركيب ، والتفرد في الكثير من الأخطاء النحوية والقوية^(٥) ، وانتهى الأمر باستغلال الرسائل التصيرية للفرصة ، وتشجيعهم لنسارى الشام على حمل لواء النهضة الفكرية في العالم العربي .

وإلى جانب ذلك فقد أدى تدهور الدراسات الدينية إلى انتشار البدع والخرافات بين المسلمين حتى أصبح الناس لا يعرفون الفرق بين الصحيح وغير الصحيح في دينهم ن ونتيجة لذلك راح العلماء العرب الغيورون على دينهم يحاولون إصلاح أمور بلادهم وأبرز مثال على هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي تعد دعوته أولى الحركات الإصلاحية في الوطن العربي ، والتي بذلت الدولة العثمانية جل جهودها للقضاء عليها .

٧ - تدهور الحركة العلمية في العصر العثماني :

سيطر روح الجمود المطلق على الحركة العلمية في البلدان العربية إبان الحكم العثماني فلا نكاد نجد في العصر العثماني مؤلفات تستلح بشيء من الأساليب العلمية وبالتالي لا نجد علماء يمثلون علماء العصر المملوكي مثلا فقد الكعب العلماء في العصر العثماني على تأليف الملخصات ووضع الحواشي على الحواشي وتكثير غرائب المسائل

١- ابن نديم : المعتمد السابق ج٣ ص ١٢٢ .

٢- نفسه ص ١٢٢ .

٣- الجوزي والفكر أن السلطان سليمان القانوني قد أمر بإعادة هؤلاء العمال إلى مصر .

٤- عمر عبد العزيز : المرجع السابق ص ٢١١ ، ٢٢٧ .

٥- عبد السلام الجيمي : عبد الله القديم وأورق في الحركة الدينية والاجتماعية ، القاهرة ، دار لكتابات الجامعي ١٩٨٠ ص ٣٩٦ .

التحوية والتلبية ، وصاروا يدعون إلى الاستسلام للأمر الواقع .
ولم يلق الحال على ذلك بل أغلقت معظم المدارس وتكدت الروح العلمية فيما تبقى
منها لتتأخر ظاهراً بسبب تمسك العثمانيين من جهة ، ونسب الموارد المالية من جهة
أخرى ، وعلى هذا فإنه يمكن القول: إن مرحلة الانحطاط العلمي قد سيطرت على البلدان
العربية ، منذ استيلاء العثمانيين عليها^(١) وتكن هل هذا يعنى أن تلقى العلوم على
العثمانيين نصيب . فالواقع أن هناك بعض المناطق العربية مثل المغرب ولجند وعصان لم
تقع تحت طائلة الحكم العثماني ، ومع ذلك فإنه لم يثقله التقدم مثلاً مثل البلدان العربية
الأخرى التي دخلت تحت الحكم العثماني مما يوضح أن الأوضاع التي خيمت على البلدان
الشرقية في ذلك الوقت ، وروح التكون إلى الكسل والعمول الذي انتاب رجالها كان لها
الدور الأكبر في ذلك .

٨ - إعمال شؤون أمن الحجاج والحرمين الشريفين :
في الفترة الأخيرة من الحكم العثماني لم تهتم الدولة العثمانية بشؤون حجاج بيت الله
الحرام لدرجة أن الأتراك كانوا يقتضون على الحجاج سفياً ونهباً وقتلاً ، ويسومونهم
سوء العذاب دون أي رادع يردعهم خصوصاً وأن العثمانيين لم يرسلوا إلى أرض الحجاز
من الجنود ما يحفظ الحج والحجاج ويجعلهم في مأمن على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم^(٢) .
ومما زاد الطين بلة أنه عندما قامت ثورة الشريف حسين بن علي ضد الأتراك في
شعبان ١٣٣٤هـ / يونيو ١٩١٦م ودارت رحى المعارك من أجل إخراج الأتراك من مكة
أطلق الأتراك نيران مدافعهم من قلعة أبيات المقامة على الجبل صوب الكعبة حتى قتلهم
النيران أستاذ البيت العتيق ، وخرج الأتراك من المسلمين لأشقاء لهيبها ، وفتح باب البيت
والصعود إلى سطحه للممكن من إلقاء القنابل^(٣) .
وهكذا انتهك الأتراك حرمة أقدس البقاع في الأرض ، ومهما برز لبعض الأصدار
لهم فمن المعروف أن مكة المكرمة كلها حرم لا يجوز القتال فيه .

١- لكرم التلي : دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، ٩٠٦-٩٢٢هـ / ١٥٠٠-١٥٢٠م ، دمشق ،
الشركة المتحدة للطباعة ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ص ١٩٢-١٩٥ .

٢- إبراهيم رامت باشا : مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشائره الدينية ، المجلد الثاني
ص ٧٥-٧٨ .

٣- أحمد عبد الغفور عطار : الكعبة والكسوة منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم ، مكة المكرمة ،
١٣٤٧هـ / ١٩٢٧م ص ١١٦ .

٩ - الامتيازات الأجنبية التي منحتها الدولة العثمانية للأوروبيين في البلدان العربية :

من المعروف انه نتيجة لدخول العثمانيين إلى البلاد العربية حرمت هذه البلاد من ممارسة ميائتها خارج لطاق حدودها وأصبحت الدولة العثمانية هي صاحبة الأمر والنهي في تسيير أمورها ، وقد أعطت هذه الدولة بعضا من الامتيازات لعدد من الدول الأوروبية ثم استغلالها في فترة ضعف الدولة لصالح رعايا هذه الدول الذين أخذوا يفسدون هذه الامتيازات تسييرا تصفيا ، كما أخذت دولهم تتدخل في شئون البلدان الإسلامية مستغلة في ذلك هذه الامتيازات وانتزعت لنفسها العديد من الامتيازات^(١) .

١٠ - مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال البريطاني لمصر :

كان لتخطيط السياسة العثمانية تجاه المسألة المصرية أكبر الأثر في تقديدها وضباب استغلالها ومن أمثلة ذلك التخطيط عدم موافقة السلطان عبد الحميد على الاشتراك في مؤتمر الأنقرة في عام ١٨٨٢ الذي تقرر فيه بحث المسألة المصرية مما يعد الدولة العثمانية عن المشاركة في تحديد مستقبل مصر ، وترك مصيرها معلقا في أيدي الدول الأوروبية^(٢) . يضاف إلى ذلك أنها ترددت في اتخاذ موقف ثابت تجاه كل من العربيين والخبير ، كما ترددت في إرسال قوات عسكرية إلى مصر بناء على طلب الخبير ، وتقاطعت في اتخاذ موقف محدد من طلب الخبير المعونة من الإنجليز ثم زلت الطين بلة بإصدارها منشورا بعدد من عرائس مما قلب ميزان الحساس الشعبي ، وإضاع التأييد الإسلامي للثورة العربية، وكان له أسوأ الأثر في النفوس وادى إلى إيقاع الفروقة والانحلال في صفوف العربيين ، والمسرف الناس عن تأييدهم مما أتاح لانتجلترا فرصة احتلال مصر^(٣) .

١١ - مسئولية الدولة العثمانية عن الاحتلال الفرنسي للجزائر :

تباينت الدولة العثمانية في إرحية فرنسا عندما طلبت منها التدخل لتأييد داي الجزائر الذي أظهر عداا واضحا للفرنسيين بمقبرة لتتسل فرنسا ، ورفضه تقديم للرحية العلنية ، وكان يجب عليها الإسراع لحسم الموقف خصوصا وأن لثار الحرب كانت واضحة بين فرنسا والجزائر . ومع ذلك فلها قررت عدم التدخل في القضية في

١- فتاوى : المرجع السابق ج٢ ص ٧٢٠ .

٢- فتاوى : المرجع السابق ج٢ ص ٢٢٧٥ .

٣- لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر بحثا بعنوان "موقف الدولة العثمانية من الثورة العربية" ومنتشر في العدد السادس والعشرون من المجلة التاريخية المصرية .

أول الأمر نظرا لأنها كانت متمكنة في إخماد ثورة الثورة للقائمة ضدها^(١) . و نتيجة لذلك
 الفرت فرنسا بالجزائر ، وقامت باحتلالها في عام ١٨٣٠ م .
 ١٢ - عدم مساهمة العثمانيين للتطورات التي حدثت في أوروبا إبان عصر
 النهضة، وعزلهم للعالم العربي عن التطور العالمي الذي بدأ مع بداية العصور الحديثة
 وذلك عندما فرضوا سيطرا حول العالم العربي بحجة حمايته من الغزو العسكري الأوربي،
 حقيقة لقد منحت الدولة العثمانية بوجود تبادل تجاري بين العرب والأوروبيين^(٢) ولكنها
 أبقت العالم العربي على حالته التي كانت موجودة قبل فتحها له . وفي الوقت الذي
 تطورت أوروبا في مضمار النهضة تطورا كبيرا أسدلت الدولة العثمانية ستار الجمود حول
 البلدان العربية بهدف تعويق تقدمها وتمنعها من الاقتراب من عصر النهضة الذي بدت
 آثاره واضحة في أوروبا مما أدى إلى تخلف العالم العربي عن ركب هذه النهضة ،
 وإضعاف ثقته في نفسه .

كل هذه الأوضاع جعلت العالم العربي يعيش في حالة من الجمود في ظل الحكم
 العثماني جعلته يدخل إلى القرن العشرين وهو لم يتخلص بعد من حياة العصور الوسطى،
 وانتهى الأمر بظهور جماعة الاتحاد والترقي ، وسيطرتها على مقاليد أمور الدولة
 العثمانية ، وتمصيدها للحركة السلطانية التي تستمد أساسها من التركيز على التسلسل
 الأثري إلى أصول طوقية والدعوة إلى بحث الجنس التركي وتمجيده ، وتخليصه من
 المؤثرات العربية والفارسية ، ومحاولة تركيز العرب وغيرهم من العناصر التابعة
 للعثمانيين بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية في المدارس والمحاكم والقوانين^(٣) ، مما
 أدى إلى غلو العرب ، وشعورهم برغبة الأتراك في صيغهم بالصيغة التركية .

ولما لعبت السلطة وجاء أتاتورك التذ من الإجراءات التي باعنت بين الدولة والإسلام
 صوما ، ومن هذه الإجراءات إلغاء الخلافة ، وإلغاء منصب شيخ الإسلام وحذف عبارة *إن دين*
 الدولة التركية هو الإسلام" والمعادلة بتركها بولتة عثمانية^(٤) ، وإلغاء لقانون الإسلامي ونفس
 قانون الأحوال الشخصية العثماني ، وإلغاء التقويم الهجري ، واستبدال العطلة الأسبوعية بيوم
 الأحد بدلا من الجمعة ، وإلغاء الحروف العربية التي كانت تكتب بها اللغة التركية واستبدالها
 بحروف لاتينية، ومنع الصلاة والتبذ في جامع آيا صوفيا ، وتحويله إلى متحف^(٥) .

١- أرشدت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠-١٨٤٧م - ترجمة فكتوري
 عبد الجليل التهامي ، تونس ، الطبعة الثانية من ٢٠١٠-٢٠٠٥ .

٢- سيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول بين ١٥٢٨-١٦٢٥ ، القاهرة : معهد البحوث والدراسات
 العربية ، الطبعة ٢٠٠٥ ١٦٧٨ من ٤٤٢ .

٣- لفتاوى المرجع السابق ج٣ من ١٢٢٨ .

٤- نفسه ج١ من ٨٨ .

٥- لفتاوى المرجع السابق ج٣ من ٢٢٧-٢٠٠٠ .

الخاتمة

وهكذا تعرضنا لسلطنة آل عثمان التي استوفت قسطها من الحياة بما فيها من رقي وهبوط ، وإساءة وإحسان فاستعرضنا خدماتها للإسلام والمسلمين خلال فترة قوتها وما وقعت فيه من أخطاء وتخطيط أودى بالعالم الإسلامي إلى الكثير من المشاكل والأطماع الاستعمارية وذلك خلال فترة ضئيلة .

ولكي نتضح الحقيقة ينبغي أن نذكر أن تخلف العالم العربي خلال فترة الحكم العثماني لم يكن مسئولية العثمانيين وحدهم ، وإنما كانت هناك عوامل أخرى متعددة يعود بعضها إلى أوضاع العالم الإسلامي نفسه ، يضاف إلى ذلك أن العثمانيين مبدلون أكثر من غيرهم للإسلام باعتباره البوابة التي دخلوا منها التاريخ فهو أساس دولتهم وحضارتهم وإليه يرجع كل ما يفخر به العثمانيون .

الملاحق

ملحق رقم (١)

بيان بأسماء سلاطين آل عثمان وسنوات حكمهم

(الجلوس-الوفات)	(الجلوس-الوفات)	
بالميلادي	بالمجري	
١٣٢٦-١٣٢٩	٧٢٦-٦٩٩	١- السلطان عثمان بن أرطغرل
١٣٢٩-١٣٢٦	٧٢٦-٧٢١	٢- السلطان أورخان بن عثمان
١٣٨٩-١٣٦٠	٧٩٢-٧٦١	٣- السلطان مراد بن أورخان
١٤٠٣-١٣٨٩	٨٠٥-٧٩٢	٤- السلطان بايزيد بن مراد
١٤٢١-١٤١٣	٨٢٤-٨١٦	٥- السلطان محمد جلال بن بايزيد
١٤٥١-١٤٢١	٨٥٥-٨٢٤	٦- السلطان مراد بن محمد
١٤٨١-١٤٥١	٨٨٦-٨٥٥	٧- السلطان محمد الثاني (الفاتح) ابن مراد
١٥١٢-١٤٨١	٩١٨-٨٨٦	٨- السلطان بايزيد الثاني ابن مراد
١٥٢٠-١٥١٢	٩٢٦-٩١٨	٩- السلطان سليم بن بايزيد
١٥٦٦-١٥٢٠	٩٧٤-٩٢٦	١٠- السلطان سليمان القانوني ابن سليم
١٥٧٤-١٥٦٦	٩٨٢-٩٧٤	١١- السلطان سليم الثاني ابن سليمان
١٥٩٥-١٥٧٤	١٠٠٣-٩٨٢	١٢- السلطان مراد الثالث ابن سليم
١٦٠٣-١٥٩٥	١١٠٣-١٠٠٣	١٣- السلطان محمد الثالث ابن مراد
١٦١٦-١٦٠٣	١٠٢٦-١٠١٢	١٤- السلطان أحمد الأول ابن محمد
١٦١٨-١٦١٦	١٠٤٨-١٠٢٦	١٥- السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث
١٦٢٢-١٦١٨	١٠٣١-١٠٢٧	١٦- السلطان عثمان الثاني ابن محمد الثالث
١٦٢٣-١٦٢٢	١٠٣٢-١٠٣١	١٧- السلطان مصطفى الأول ابن محمد الثالث
١٦٤٠-١٦٢٣	١٠٤٩-١٠٣٢	١٨- السلطان مراد الرابع ابن أحمد الأول
١٦٤٨-١٦٤٠	١٠٥٨-١٠٤٩	١٩- السلطان إبراهيم ابن أحمد الأول
١٦٨٧-١٦٤٨	١١٠٤-١٠٥٨	٢٠- السلطان محمد الرابع ابن إبراهيم خان
١٦٩١-١٦٨٧	١١٠٢-١١٠٤	٢١- السلطان سليمان الثاني ابن إبراهيم خان
١٦٩٥-١٦٩١	١١٠٦-١١٠٢	٢٢- السلطان أحمد الثاني ابن إبراهيم خان

١٧٠٣-١٦٩٥	١١١٥-١١٠٦	٢٣- السلطان مصطفى الثاني ابن محمد الرابع
١٧٣٠-١٧٠٣	١١٤٩-١١١٥	٢٤- السلطان أحمد الثالث ابن محمد الرابع
١٧٥٤-١٧٣٠	١١٦٨-١١٤٣	٢٥- السلطان محمود الأول ابن مصطفى الثاني
١٧٥٧-١٧٥٤	١١٧١-١١٦٨	٢٦- السلطان عثمان الثالث ابن مصطفى الثاني
١٧٧٣-١٧٥٧	١١٨٧-١١٧١	٢٧- السلطان مصطفى الثالث ابن أحمد الثالث
١٧٨٩-١٧٧٣	١٢٠٣-١١٨٧	٢٨- السلطان عبد الحميد ابن أحمد الثالث
١٨٠٧-١٧٨٩	١٢٢٥-١٢٠٣	٢٩- السلطان سليم الثالث ابن مصطفى الثالث
١٨٠٨-١٨٠٧	١٢٢٣-١٢٢٢	٣٠- السلطان مصطفى الرابع ابن عبد الحميد الأول
١٨٣٩-١٨٠٨	١٢٥٥-١٢٢٣	٣١- السلطان محمود الثاني ابن عبد الحميد الأول
١٨٦١-١٨٣٩	١٢٧٧-١٢٥٥	٣٢- السلطان عبد الحميد الأول ابن محمود غازي
١٨٧٦-١٨٦١	١٢٩٣-١٢٧٧	٣٣- السلطان عبد العزيز ابن محمود
١٨٧٦-١٨٧٦	١٢٩٣-١٢٩٣	٣٤- السلطان مراد خان ابن عبد المجيد
١٩٠٩-١٨٧٦	١٣٢٨-١٢٩٣	٣٥- السلطان عبد الحميد ابن عبد المجيد
١٩١٨-١٩٠٩	١٣٣٦-١٣٢٧	٣٦- السلطان محمد رشاد ابن عبد المجيد
١٩٢٣-١٩١٨	١٣٤٤-١٣٣٦	٣٧- سلطان محمد السادس ابنه ابن عبد المجيد
١٩٢٤-١٩٢٣	١٣٤١-١٣٤٠	٣٨- سلطان عبد المجيد ابن عبد العزيز (خليفة لفظ)

اعلان الجمهورية بقيادة مصطفى كمال (أتاتورك) ١٩٢٣ -

ملحق رقم (٣)
القانون الأساسي في ممالك الدولة العثمانية (١)

على الرغم من أن السلطان عبد الحميد الثاني كان قد وعد قبل جلوسه على عرش السلطنة بمنح الأمة العثمانية الدستور والحرية فقد ساءل في الأمر لفترة حتى اضطره ظروف الدولة الخارجية وتربس الدول الأوروبية ببلاده إلى تنفيذ ما وعد به الأمر بإجراء بعض الإصلاحات ، كما عين منحت باشا أبو الأحرار صندرا أعظم . وفي السابع من شهر ذي الحجة ١٢٩٥هـ / ٢٤ ديسمبر ١٨٧٧ اجتمع العلماء والأمراء والوكلاء وغيرهم في الباب العالي ثم قرأ منحت باشا الإنارة الشاهانية التي منحت الأمة العثمانية القانون الأساسي . وفيما يلي نعرض لمواد هذا القانون :

- ١- ﴿ المادة الأولى ﴾ أن الدولة العثمانية تتكون على الممالك والقطع الخاضعة وعلى الأيالات المتمتزة وجميعها جسم واحد لا يمكن تفريقه أو تجزئته بوقت من الأوقات أو بسبب من الأسباب .
- ٢- ﴿ المادة الثانية ﴾ أن مدينة استانبول هي عاصمة الدولة العثمانية ومقرها وهذه المدينة غير معفاة أو متمتزة عما سواها من جميع الأقاليم العثمانية .
- ٣- ﴿ المادة الثالثة ﴾ أن السلطة السنية العثمانية الحائزة على الخلافة الكبرى الإسلامية تكون لأكثر سلطة آل عثمان بحسب الأصول القديمة .
- ٤- ﴿ المادة الرابعة ﴾ أن حضرة السلطان بحسب الخلافة هو الحامي لدين الإسلام و هو ملك جميع القبة العثمانية وسلطانها .
- ٥- ﴿ المادة الخامسة ﴾ أن نفس ذات الحضرة الساجدية هي مقدسة وغير مسؤولة .
- ٦- ﴿ المادة السادسة ﴾ أن حقوق حرية سلطة آل عثمان وأموالهم وأماكنهم الذاتية وتخصيصاتهم المالية ما دامت الحيوة جميعها تحت التكامل العمومي .

١- كثر الخلاف في منقبات الجواب ، المسئلة ، الجزء السادس ، طبعة الأولى ١٢٩٥هـ .

٧ - ﴿ المادة السابعة ﴾ أن عزل الوكلاء وتصحيح وتوجيه المناصب والرتب واعطاء التيلشين وتوجيهات الايالات المتارة ترفيقاً لشروط استيثارهم وحرب المسكوكات وذكر اسمهم في الخطب وعقد المعاهدات مع الدول الأجنبية وإعلان الحرب والصلح والفراس على القوة البحرية والبرية واجراء الحركات العسكرية والأحكام الشرعية والقانونية وتنظيم المنظمات المتعلقة بمعاملات دوائر الإدارة وتخفيف المجازاة للقانونية أو المعفو عنها وعقد المجلس العمومي أو قضه وتعطيله وقسخ هيئة المبعوثان لدى الاقتضاء على شرط انتخاب الأعضاء مجدداً ذلك جميعه من جملة حقوق الحضرة السلطانية المكتسة.



﴿ في حقوق تبعة الدولة العثمانية العمومية ﴾

- ٨ - ﴿ المادة الثامنة ﴾ يطلق اسم عثمانى بدون استثناء على كافة أفراد التبعة العثمانية من أي دين ومذهب كانوا وهذه التبعة العثمانية فقد أو تستحصل على مكتضى الأحوال المعينة قانوناً.
- ٩ - ﴿ المادة التاسعة ﴾ عثمانيون بأجمعهم يملكون حرية الشخصية ومكتفون بأن لا يتسلطوا على حقوق حرية الآخرين .
- ١٠ - ﴿ المادة العاشرة ﴾ كتمان الحرية الشخصية من كافة أنواع التعرض ولا يجازى أحد تحت أي حجة كانت خارجاً عن تصور والأسباب المعينة في القانون .
- ١١ - ﴿ المادة الحادية عشرة ﴾ أن دين الدولة العثمانية هو دين الإسلام مع المحافظة على هذا الأساس تكون حرية جميع الأديان المعروفة في الممالك العثمانية وكافة الامتيازات الممنوحة إلى الجماعات المختلفة تحت حماية الدولة على شرط أن لا تخل براحة الخلق ولا بالأدب العمومية .
- ١٢ - ﴿ المادة الثانية عشرة ﴾ تكون المطبوعات مطبوعة في دائرة القانون .
- ١٣ - ﴿ المادة الثالثة عشرة ﴾ قائمة العثمانية مأذونة أن تشكل ضمن دائرة النظام والقانون كل أنواع الشركات لأجل التجارة والصناعة والفلاحة .
- ١٤ - ﴿ المادة الرابعة عشرة ﴾ إذا رأى أحد التبعة العثمانية أو عدة أشخاص منهم قضية متعلقة بهم أو بالعموم مخالفة للقوانين والنظمات يحق لهم أن يقدموا

- بخصوصها عرض حال امرجها ويحق لهم كذلك أن يتقدموا للمجلس العمومي عرض حال ممضيا بصفة مدعين وأن يشكروا من أفعال المأمورين .
- ١٥ - المادة الخامسة عشرة في أمر التدريس يكون مطلقا وكل عضواي مألون بالتدريس خصوصيا كان أو عموما على شرط لوائح القانون المعين .
- ١٦ - المادة السادسة عشرة في توضع جميع المكاتب تحت نظارة الدولة ويجب لتثبيت في الأسباب التي تجعل للتربية العثمانية على نسق واحد في الاتحاد والانتظام ولا يقع خلل في أصول التعليم المتعلق بأمر معتقدات المال المغتلة .
- ١٧ - المادة السابعة عشرة في يكون كافة العثمانيين متساوين أمام القانون وفي حقوق الملكية ووظائفها فيما عدا الأحوال المذهبية والدينية .
- ١٨ - المادة الثامنة عشرة في يشترط في مطلب استخدام التبعة العثمانية في خدمات الدولة أن يعرفوا اللسان التركي الذي هو لسان الدولة الرسمي .
- ١٩ - المادة التاسعة عشرة في تقبل عموم التبعة في مأموريات الدولة ويستعملون فيما يتناسب منها بحسب أهليتهم وليقتهم .
- ٢٠ - المادة العشرون في تطرح التكاليف المقررة وتوزع على التبعة بنسبة التقدير كل فرد منهم توفيقا لظوائفها المخصوصة .
- ٢١ - المادة الحادية والعشرون في يكون كل فرد أميناً على ماله وعلى ملكه المتصرف فيه تصرفاً أصولياً ولا يؤخذ من أحد الملك الذي في تصرفه ما لم يثبت لزومه للمنفعة العمومية وما لم يدفع له ما يساويه من الثمن نقداً على موجب القانون .
- ٢٢ - المادة الثانية والعشرون في يمان مسكن كل فرد في الملكية العثمانية ومأزله من التعرض وليس في وسع الحكومة أن تشغل جبراً إلى مسكن أحد أو مأزله بسبب من الأسباب فيما عدا الأحوال التي يعنها القانون .
- ٢٣ - المادة الثالثة والعشرون في على موجب حكم قانون أصول المحاكمات المقرر وضعه لا يجبر أحد على الذهاب إلى محكمة غير المحكمة المنسوب إليها قانونياً .
- ٢٤ - المادة الرابعة والعشرون في السفر والسفارة والجريمة متنوعة ويستثنى من ذلك التكاليف والأحوال التي تحين أصولها في أثناء المحاكمة .
- ٢٥ - المادة الخامسة والعشرون في لا يؤخذ من أحد براءة لقرود تمت اسم ويركو ورسومات أو تحت أي اسم آخر من غير أن يكون ذلك مستقداً على قانون .

٢٦ - « المادة السادسة والعشرون » التعذيب وكل أنواع الأذى ممنوع بكافة

بالوجه القلبي .



« في وكلاء الدولة »

٢٧ - « المادة السابعة والعشرون » يحال مستند المصادرة والمضيقة الإسلامية

إلى من تكلفهم المصلحة السلطانية وتجرى كذلك مأمورية كافة الوكلاء بموجب الإرادة

السنية .

٢٨ - « المادة الثامنة والعشرون » يعقد مجلس وكلاء تحت رئاسة المصدر

الأعظم وهذا المجلس هو مرجع الأمور الداخلية والخارجية وما يحتاج من قرار متكررة

للاستئذان يجرى بالإرادة السلطانية .

٢٩ - « المادة التاسعة والعشرون » كل من الوكلاء يجرى على وفق الأصول

كل ما يكون داخلا تحت مألوفاته من الأمور العائدة لدائرته وما كان خارجا عنها يعرض

على المصدر الأعظم فيجرى المصدر مقتضى ما يكون منها غير محتاج للمذاكرة أو يستلزم

صفة من الحضرة السلطانية والذي يحتاج إلى المذاكرة يعرضه على مذاكرة مجلس الوكلاء

ويجرى مقتضاء على موجب الإرادة السنية أما أنواع هذه المصالح ودرجاتها فتعين بنظام

مخصوص .

٣٠ - « المادة الثلاثون » وكلاء الدولة مسئولون عن الأحوال والإجراءات

المتعلقة بمأمورياتهم .

٣١ - « المادة الحادية والثلاثون » إذا أورد أحد أعضاء المبعوثان أو عدة

منهم شكاية على أحد الوكلاء توجب عليه المسؤولية من قبيل بعض الأحوال الداخلية

ضمن دائرة وظيفة هيئة المبعوثان يرسل رئيس الهيئة تقرير الشكاية للتقدم له في ظرف

ثلاثة أيام إلى اللجنة المسؤولة بالتحقيق على ما يسأل هذه المواد لتتقرر هل نظام هيئة

المبعوثان الداخلي يوجب تحويلها إلى الهيئة أولا وبعد أن تجرى للجنة التحقيقات اللازمة

وتمتحصل من المشككى عليه الإيضاحات الكافية وتلى لدى هيئة المبعوثان قرارها الذي

يترتب بأكثارية الآراء بلزوم التلزم على الشكاية وإذا نسبت الحاجة لتسديس الهيئة ذلك

المشتكى عليه وتسمع منه رأساً أو من وكيله الإيضاحات التي يبردها في هذا الباب ومتى
قر القرار بالأكثرية المطلقة من ثلثي الأعضاء الموجودين على قبول الشكائية تقدم مضبطة
مطلب المحاكمة إلى مقام المصادرة فيقدمها المصدر للعرض وتحال الكيفية إلى الديوان العالي
بعد تعلق الإرادة السنية عليها .

٣٢ - المادة الثمانية والثلاثون في أن أصول محاكمة المتهمين من الوكلاء

ستعين بنظام مخصوص .

٣٣ - المادة الثالثة والثلاثون في لا فرق بين الوكلاء وسائر أفراد العشائين

في كل أنواع الدعاوى المتعلقة بأنفسهم خاصة خارجة عن مأموريتهم أما محاكمة ما شاكل
هذه الدعاوى والخصوصيات فتجرى في المحاكم العمومية المنوط بها رؤيتها .

٣٤ - المادة الرابعة والثلاثون في يسقط من الوكالة كل الوكلاء الذين يقر قرار

دائرة الاتهام في الديوان العالي على كونهم متهمين وذلك إلى أن تثبّرأ ثمتهم .

٣٥ - المادة الخامسة والثلاثون في إذا أسس الوكلاء على قبول أحد المواد

المختلف عليها بينهم وبين هيئة المبعوثان وكرر المبعوثان رفضها فلعنبا بأكثرية الآراء
المشطوبة بتقصير الأسباب الموجبة لرفضها فيكون حينئذ بيد القدر الحاضرة السلطانية
تدليل الوكلاء أو تسخ هيئة المبعوثان على شرط تجديد انتخابها في المدة القانونية .

٣٦ - المادة السادسة والثلاثون في إذا ظهر في بعض أئمة انعقاد المجلس

العمومي واجتماعه ضرورة مبرمة لوقاية الدولة من خطر أو لأمن العام من خلل في
وقت غير مساعد على جلب المجلس المذكور وجمعه لأجل التلاكل في القانون الذي يرى
لزوم لوضعه في تلك الحالة فما تعمله الوكلاء حينئذ من القرارات التي لا تلغى أحكام
القانون الأساسي تعتبر مؤقتة بموجب الإرادة السلية في قوة حكم القانون وذلك إلى أن
تجتمع هيئة المبعوثان وتعلمي قراراً ينسحبها .

٣٧ - المادة السابعة والثلاثون في كل من الوكلاء يستطيع متى أراد أن

يغضّر في الهيئتين أو يوجد بهما بالوكالة عنه أحد رؤساء مأموري معية وله حق التقدم
على الأعضاء في إيراد الطبق .

٣٨ - المادة الثامنة والثلاثون في إذا قر قرار هيئة المبعوثان بالأكثرية على

أن تستدعي لعضورها أحد الوكلاء للاستتضاح عن مادة قبي وسع الوزير المدعو أن
يذهب إلى الهيئة باللات أو يرسل أحد رؤساء مأموري معيته لتجيب عما يسأل عنه وفي
وسعه أيضاً أن يؤخر الجواب إذا وجد لزوماً على شرط أن تكون مسئولية التأخير عليه .

﴿ في المأمورين ﴾

- ٤٠ - ﴿ المادة التاسعة والثلاثون ﴾ جميع المأمورين بالتصديق للمأموريات التي يكونون أملا لها على وفق الشروط التي سيضع نظامها والمأمورون المنتخبون على هذا الوجه لا يعزلون أو يبدلون ما لم يثبت قانونا الحال الموجب عزلهم أو يستعفوا من تلقاء أنفسهم ما لم ير لدى الدولة سبب ضروري لعزلهم أما من كان منهم مستقيا وحسن السلوك والفصل عن مأموريته بسبب مقتضى لدى الدولة فله حق بالترقي أو بالتقاعد أو بمعاين معزوليته حسبما يتعين في نظام هذا المطلب المخصوص .
- ٤١ - ﴿ المادة الأربعون ﴾ كل مأمور مسئول ضمن دائرة وظيفته .
- ٤٢ - ﴿ المادة الحادية والأربعون ﴾ كل مأمور ملزم باحترام أمره وإطاعته ضمن الدائرة التي يعينها القانون لما لطاعته للأمر في الأمور المخالفة للقانون لا تكون مدارا لتفويضه من المسئولة .



﴿ في المجلس العمومي ﴾

- ٤٣ - ﴿ المادة الثانية والأربعون ﴾ المجلس العمومي يحتوى على هئتين أحدهما تدعى هيئة الأعيان والثانية هيئة المبعوثان .
- ٤٤ - ﴿ المادة الثالثة والأربعون ﴾ اجتماع هيئة المجلس العمومي في كل سنة يكون في بداية تشرين الثاني والمجلس المذكور يفتح أو يغلق بموجب الإرادة السلبية وغلقه يكون في بداية مارس ولا يمتد إحدى هاتين الهيئتين في زمان لتكون به الأخرى غير مجتمعة .
- ٤٥ - ﴿ المادة الرابعة والأربعون ﴾ للحضرة السلطانية أن تفتح المجلس العمومي قبل وقته إذا وجد لدى الدولة لزوم لذلك وأن تنقصر مدة الاجتماع المعينة أو تزيدها .

٤٥ - المادة الخامسة والأربعون في يتم افتتاح المجلس العمومي بحضور

الحضرة السلطانية بالثلاث أو بالوكالة بحضور المصدر الأعظم ووكلاء الدولة وأعضاء الهيئتين معا ويأتي في ذلك اليوم نطق سلطاني متعلق بأحوال داخلية الدولة ومسايقها الخارجية في ظرف السنة الجارية وفيما يجب اتخاذه من التشبكات والتدابير في السنة الآتية.

٤٦ - المادة السادسة والأربعون في يوم افتتاح المجلس يحلف بحضور

المصدر الأعظم كل من القوت المنتخبين أو المصوبين أعضاء المجلس العمومي على أن يكون صانعا تاسعها للحضرة السلطانية ولوطنه وأن يراعى أحكام القانون الأساسي والوظيفة المودطة المعهدة وأن يجتنب كل ما يخالف ذلك ومن لم يحضر في ذلك اليوم من الأعضاء يحلف على الوجه المشروع عند اجتماع الهيئة بمعرفة رئيس هيئته .

٤٧ - المادة السابعة والأربعون في أعضاء المجلس العمومي يكونون أحرارا

في آرائهم ومطامعهم ولا يكون أحد منهم تحت قيد تمليكات ووعد ووعيد ولا يهتم هيئة من قبيل الآراء التي يعطيها ولا من جهة المطالعات التي بينهما في أثناء مذكرات المجلس إذا لم تقع منه في جميع تلك حركة مخالفة للنظام للمجلس الداخلي قبلًا وقع يعامل بحكم النظام المذكور .

٤٨ - المادة الثامنة والأربعون في إذا تهم أحد أعضاء المجلس العمومي

بالخيانة أو بالتصدي لإلغاء القانون الأساسي أو نقضه أو في إحدى تهم الارتكاب وتقرر اتهامه بتثلي الأكلية المطلقة من هيئة الأعضاء الموجودين في الدائرة المصوب إليها أو حكم عليه بجزاء موجب لحبسه أو نفيه قانونا تسقط عنه صفة العضوية أما محاكمة هذه الأفعال ومجازلتها فتجوزها المحكمة الملوط بها ذلك .

٤٩ - المادة التاسعة والأربعون في لكل فرد من أعضاء المجلس العمومي أن

يعلى رأيه بالذات أو لا يعلى في رد تلك المادة الواقع عليها التذكار أو في قبولها .

٥٠ - المادة الخمسون في لا يمكن لأحد أن يكون عضوا في الهيئتين معا في

وقت واحد .

٥١ - المادة الحادية والخمسون في لا يندرج المذاكرة في كक्षा هيئتي المجلس

العمومي ما لم تكن الأعضاء المرتبة في كل منهما زائدة ولذا بالمعدن عن النصف وكافة المذكرات تقرر بالأكلية المطلقة من الأعضاء الموجودين خلا تلك الخصوصيات التي يشترط تقريرها بأكلية ثنتين ويحضر رأي الرئيس ولين عند تساوى الآراء .

- ٥٦ - **المادة الثانية والخمسون** في إذا قدم أحد إلى إحدى هيئتي المجلس العمومي عرضحال في دعوى متعلقة بشخصه وتبين أنه لم يرجع في ذلك مأموري الدولة العادة لهم تلك الدعوى أو لم يرجع المرجع التابع له لولئك المأمورون لموضحاله يرد .
- ٥٧ - **المادة الثالثة والخمسون** في التكليف بتنظيم قانون مبدد أو بتعديل أحد القوانين الموجودة منوط بهيئة وكلاء الدولة ويمحق لهيئة الأعيان وهيئة المبعوثان أن تستلجها بتنظيم قانون لأجل المواد الموجودة في دائرة وظائفهم المعنية أو بتعديل أحد القوانين الموجودة وحينئذ يستأن عنها لوز من الحضرة السلطانية بواسطة مقام المصدرة ومضى تعلقت الإرادة السلطانية بحال إلى شوري الدولة لتنظيم لوائحها على مقتضى الإيضاحات والتفصيلات التي تملأ من التواتر المتعلق بها ذلك .
- ٥٨ - **المادة الرابعة والخمسون** في لوائح القوانين التي تنظم بالذاكرة في شوري الدولة بعد أن يجري عليها التفتيق والقبول في هيئة المبعوثان ثم في هيئة الأعيان تكون مستورا للعمل إذا تعلقت الإرادة السنية بإجراء أحكامها ولائحة القانون المراد من إحدى الهيئتين ردا قاطعا لا يتكرر وضعها في مواقع المذاكرة في السنة الاجتماعية بتلك السنة .
- ٥٩ - **المادة الخامسة والخمسون** في لا يعتبر أحد القوانين مقبولا ما لم تقرأ لائحته بتدا لهذا في هيئة المبعوثان ثم في هيئة الأعيان ويعطى على كل بند على حدة رأي ويقر عليه القرار بأكثرية الآراء ثم يقر القرار بعد ذلك على مجموع هيئتها تكرارا بالأكثرية .
- ٦٠ - **المادة السادسة والخمسون** في على الهيئتين أن لا تقبل أحد رأيي إيهما بالأصلية عن نفسه أو بالوكالة عن جماعة لأجل إقامة مادة من المواد ولا تستعما اقتضه إذا لم يكن من الوكلاء أو من موكلهم أو من نفس أعضاء الهيئتين أو من أحد المأمورين المدعو رسما بالحضور إيهما .
- ٦١ - **المادة السابعة والخمسون** في منكرات الهيئتين تكون بالثلاثة التركيبة وللوائح المقتضى إجراء المذاكرة عليها تطبع صورها وتتوزع على الأعضاء قبل يوم المذاكرة .
- ٦٢ - **المادة الثامنة والخمسون** في الآراء التي تعطىها الهيئتان تكون بتعيين الأسماء أو بإشارات مخصوصة أو بأثرأي الخفى أما إجراء أصول الرأي الخفى فيتوقف إعطاء قراره على أكثرية آراء الأعضاء الموجودين .

٥٩ - ﴿ المادة التاسعة والخمسون ﴾ ان المنباط الداخلية كل هيئة على حدتها
محسور برئيسها .



﴿ في هيئة الأعيان ﴾

- ٦٠ - ﴿ المادة الستون ﴾ لا يتجاوز عدد أعضاء هيئة الأعيان ورئيسها لهاية ما
يكون ثلث مقدار هيئة المبعوثان وتوظفهم هو ملوط رأسا بالحضرة السلطانية .
- ٦١ - ﴿ المادة الحادية والستون ﴾ لا يمكن أن يكون عضوا في هيئة الأعيان
إلا من كان بالأقل بلغا من الأربعين وهو من الذوات الذين حازت لأثرهم وأعمالهم وثوق
العامة واعتمادها والشهود لهم بحسن الخدمات المسبوقة في أمور الدولة .
- ٦٢ - ﴿ المادة الثانية والستون ﴾ عضوية هيئة الأعيان تبقى ما دامت الحياة
ويتعين بهذه التأموريات ذوات من معزولي الوكلاء والولاة ومشغري المعسكرات وقضاة
المعسكر والسفراء والمطاركة ورؤساء المخابرات ومن فرقاء البرية والبحرية ومن مدائر
الذوات الجاهلي الصلوات اللازمة ومن يتعين منهم في غير مأموريات من مأموريات
الدولة بناء على طلبه يسقط من مأمورية العضوية .
- ٦٣ - ﴿ المادة الثالثة والستون ﴾ ان المعاش الشهري لكل من أعضاء هيئة
الأعيان هو عشرة آلاف قرش وإذا كان للأعضاء الموظفون معاش وتعيين من الخزينة
باسم آخر أقل من عشرة آلاف قرش فهو يبلغها وإذا كان عشرة آلاف قرش أو أكثره يبقى
على حاله .
- ٦٤ - ﴿ المادة الرابعة والستون ﴾ على هيئة الأعيان أن تجري التحقيق على
لوائح القوانين والموازنة التي تسلي لها من هيئة المبعوثان فإذا ركت فيها أساسا ما يمس
الأمور الدينية وحقوق حضرة الذات السلطانية المدنية أو ما يمس الحرية والحكم القانون
الأساسي وتنام ملكية الدولة أو ما يخل بأمنية داخلية ويسبب الدفاعة والمحافظة على
الوطن أو ما يخل بالأداب العمومية فلها حينئذ أن تورد مطالباتها وتردها وترفضها قطعا
أو تعيدها إلى هيئة المبعوثان ممنوعة بملاحظاتها لأجل التعميل والتسوية واللوائح التي
تقبلها تصادق عليها وتعرضها على مقام المندارة أما الملاحظات المتقدمة إلى الهيئة

تجرى عليها التصديق ثم تقدمها إلى مقام الصدارة مشفوعة بالمطالعات إذا رأت لذلك لزوما .



﴿ في هيئة المبعوثان ﴾

- ٦٥ - ﴿ المادة الخامسة والستون ﴾ ان مقدار أعضاء هيئة المبعوثان يتقلب باعتبار نفر واحد لكل خمسين ألفا من ذكور النخبة العثمانية .
- ٦٦ - ﴿ المادة السادسة والستون ﴾ أمر الانتخاب مؤسس على قاعدة الرأى الخفى وصورة إجرائه ستعين بقانون مخصوص .
- ٦٧ - ﴿ المادة السابعة والستون ﴾ لا يمكن أن يجتمع بعهدة ذات واحدة عضوية هيئة المبعوثان ومأمورية الحكومة معا وإنما تجوز العضوية لمن ينتخب من الوكلاء وإذا انتخب لعضوية المبعوثان واحد من المأمورين فله الخيار فى قبولها أو رفضها ولكن إذا قبلها انفصل عن مأموريته .
- ٦٨ - ﴿ المادة الثامنة والستون ﴾ ان الذين لا يجوز انتخابهم لهيئة المبعوثان هم أولا الذين ليسوا من نخبة الدولة فعليه ثانيا الحائزون موقفا بموجب النظام المخصوص لمقاتل الخدمة الأجنبية ثالثا الذين لا يعرفون اللغة التركية رابعا الذين لم يكملوا سن الثلاثين خامسا من كان فى خدمة أحد حين الانتخاب سادسا من كان محكوما عليه بالإقالة ولم يعد اعتباره سابعا من اشتهر بسوء الأحوال ثامنا من حكم عليه بالحجر ولم يتمكن من رفعه تاسعا الساقط من الحقوق المدنية عاشرا المدعون للتأجيل الأجنبية فهو لا يمكن أن يكونوا أعضاء فى هيئة المبعوثان ويشترط فى الانتخابات التي تجرى بعد أربع سنين على من يلزم أن يكون مبعوثا أن يقرأ اللغة التركية وأن يكتب بها أيضا على قدر الامكان .
- ٦٩ - ﴿ المادة التاسعة والستون ﴾ ان لانتخاب المبعوثان العمومى يجرى مرة واحدة فى كل أربع سنين ومدة مأمورية كل مبعوث حارة عنها ويجوز تكرار انتخابه .

- ٧٠ - المادة السبعون في بيتا بانتخاب المبعوثان العمومي من مدة لا تقل من أربعة أشهر قبل تشرين الثاني الذي هو مبدأ اجتماع الهيئة .
- ٧١ - المادة الحادية والسبعون في كل عضو من هيئة المبعوثان لا يعتبر وكيلًا عن الدائرة التي انتخبته وإنما يكون في حكم وكيل عموم العلمانيين .
- ٧٢ - المادة الثانية والسبعون في المنتخبون يلتزمون بانتخاب المبعوثان من أعلى دائرة ولاية المنسوبين إليها .
- ٧٣ - المادة الثالثة والسبعون في إذا فسخت هيئة المبعوثان وتفرقت بالارادة السنية بيتا بانتخاب عموم المبعوثان مجدداً على وجه أن يجتمعوا في مدة لا تتجاوز ستة أشهر بعد الفسخ .
- ٧٤ - المادة الرابعة والسبعون في إذا مات أحد أعضاء هيئة المبعوثان أو وقع في أحد الأسباب المشروعة الحجرية أو لم يداوم على المجلس مدة طويلة أو استغنى أو سقط من الاعضاء الحكومية أو للبوله مأمورية فينتخب لمحلته خلفه حسب الأصول بحيث يلحق الاجتماع الآتي .
- ٧٥ - المادة الخامسة والسبعون في ان الأعضاء التي تلتخب لتحل في مقام الأعضاء المتخلين من العضوية تكون مأموريتهم حتى الالتحاق العمومي الآتي .
- ٧٦ - المادة السادسة والسبعون في يعطى من الخزينة حشرون ألف غرش لكل من المبعوثان من كل اجتماع سنوي ويعطى له كذلك مصاريف الذهاب والإياب حكم المأمور الذي معالته خمسة آلاف غرش شهرياً توفيقاً لنظام مأموري الملكية .
- ٧٧ - المادة السابعة والسبعون في ينتخب من طرف الهيئة ثلاثة أفرار لرئاسة هيئة المبعوثان وثلاثة أفرار لكل من الرئاسة الثانية والثالثة مجموع ذلك تسع أفرار، فيعرضون على الحضرة السلطانية فيترجع لديهم بالارادة السنية السلطانية للرئاسة والثان منهم كذلك لوكلتي الرئاسة وتجرى مأموريتهم .
- ٧٨ - المادة الثامنة والسبعون في مذكرات هيئة المبعوثان تكون علانية ولكن إذا وقع التكليف من جانب الوكلاء أو من طرف خمس عشرة ذاكاً من هيئة المبعوثان على أن تكون المذكرات خفية على لمدى المصاد المهمة فيخلص محل هيئة الاجتماع من الحاضرين فيه دون الأعضاء وتراجع حينئذ الآراء في رد هذا التكليف أو قبوله .
- ٧٩ - المادة التاسعة والسبعون في لا يحاكم أحد الأعضاء أو يوقف في مدة اجتماع هيئة المبعوثان ما لم يسل قرار من الهيئة بكثرية الآراء على سبب كفاف لاكهامه أو يقين عليه في حال إجراء الجنابة أو الجفحة أو عقاب إجراء ذلك .

٨٠ - **في المادة الثمانون** **في** ان هيئة المبعوثان تتذكر على لوائح القوانين المعمول بها ولها ان تقبل من ذلك المواد المتعلقة بالأمور المالية والقانون الأساسي أو ترفضها أو تعطلها وبعد ان يجرى التكليف بالتفصيل في هيئة المبعوثان على المصارف العمومية حسبما هو موضح في قانون الموائلة يملأ القرار على مقدارها مع الوكلاء ثم يتعين كذلك مع الوكلاء سوية كمية وكيفية مما يقابل ذلك من الواردات وصورة توزيعها وتداركها .



في المحاكم

- ٨١ - **في المادة الحادية والثمانون** **في** لا يحزل قضاء المتكثيرون ترفيقا للأصول المخصوصة المنصويون من طرف الدولة بموجب برقة شريفة بإيديهم وإنما يقبل استغلالهم أما ترفيقات هؤلاء الحكام وسلكم وتبدل مأمورياتهم وتقاعدهم أو عزلهم لحزم محكوم به عليهم ذلك جميعه تابع لحكم قانونه المخصوص وهذا القانون يوضح الأوصاف المطلوبة من قضاء ومن مأموري المحاكم .
- ٨٢ - **في المادة الثانية والثمانون** **في** كل أنواع المحاكمات تجري علانية في المحاكم ويؤذن بنشر الاعلانات دائما وإنما تستطيع المحكمة أن تجري المحاكمة خفية بناء على الأسباب المصرحة في قانونها .
- ٨٣ - **في المادة الثالثة والثمانون** **في** يستطيع كل شخص أن يستعمل بمحضر المحكمة كل ما يراه لازما من الوسائل المشروعة لمحاكمة حقه .
- ٨٤ - **في المادة الرابعة والثمانون** **في** لا يمكن للمحكمة بأى حجة كانت أن تمتنع عن رؤية الدعوى الداخلة ضمن دائرة وظيفتها وبعد البداة بخصم الدعوى أو بما لزم من التحقيقات الأولية لا يجوز كذلك تعطيلها أو تعويقها ما لم يكف المدعى يده أما في الدعوى الجزائية في مطلب الحق العائد للحكومة فالدعوى تسكر في مجراها على وفق النظام .
- ٨٥ - **في المادة الخامسة والثمانون** **في** كل دعوى تنظر في المحكمة المتعلقة بها لما للدعوى الواقعة بين الحكومة والاشخاص فترى في المحاكم العمومية .

٨٦ - ﴿ المادة السادسة والثمانون ﴾ المحاكم معتمدة من كل أنواع المداخلات .

٨٧ - ﴿ المادة السابعة والثمانون ﴾ الدعاوى الشرعية ترضى في المحاكم

الشرعية والنظامية في المحاكم النظامية .

٨٨ - ﴿ المادة الثامنة والثمانون ﴾ ان منسوب المحاكم ودرجات وظائفها

ومساحيتها وتسمياتها وتوظيف الحكام جميعه مستند إلى القوانين .

٨٩ - ﴿ المادة التاسعة والثمانون ﴾ لا يجوز البتة أن يتشكل خارجا عن

المحاكم العمومية محكمة فوق المادة أو قروصيون يكون في وسعهما النظر في بعض مواد

مفسوسة والحكم عليها وإنما يجوز تعيين المولى والتحكيم فقط كما هو معين بالقانون .

٩٠ - ﴿ المادة التسعون ﴾ لا يمكن لأحد الحكام حال كونه بمسلة الحاكمية أن

يجمع في عهنته مأمورية أخرى ذات معاش من الدولة .

٩١ - ﴿ المادة العادية والتسعون ﴾ يعين مدعون صوميون مأمورون بالمحاسبة

عن حقوق العامة في الأمور الجزائية وتعين وظائفهم ودرجاتهم بقانون .



﴿ في الديوان العالي ﴾

٩٢ - ﴿ المادة الثانية والتسعون ﴾ الديوان العالي يركب من ثلاثين عضوا

ضرة منهم من هيئة الأعيان و عشرة من شوري الدولة وعشرة بفرزون بالقرعة من

رؤساء محكمتي التمييز والاستئناف وأعضائهما ويعقد هذا الديوان في دائرة هيئة الأعيان

بالأرادة السنية عند اللزوم وظوائفه إنما هي محكمة للوكلاء ورؤساء محكمة التمييز

وأعضائهما ومحكمة كل من اعتدى على ذات الحضرة السلطانية وعلى حقوقها وكل من

كسدى لإلقاء الدولة في خطر .

٩٣ - ﴿ المادة الثالثة والتسعون ﴾ يقسم الديوان العالي إلى دفتين إحداهما

الدائرة الاتهامية والثانية ديوان الحكم فأعضاء الدائرة الاتهامية تسعة منهم ثلاثة من هيئة

الأعيان وثلاثة من ديوان التمييز والاستئناف وثلاثة من أعضاء شوري الدولة وجميعهم

ينتخبون بالقرعة من الأعضاء الذين يؤخثون للديوان العالي .

٩٤ - المادة الرابعة والتسعون في أن هذه الدائرة تعطي القرار بأكثرية الثلثين في اتهام الذات المشتكى عليهم أو عذبه والموجودون في الدائرة الاتهامية لا يوجدون في ديوان الحكم .

٩٥ - المادة الخامسة والتسعون في أن ديوان الحكم تكون أعضاؤه سبعة من هيئة الأعيان وسبعة من ديوان التمييز والاستئناف وسبعة من رؤساء شورى الدولة وأعضائها فيكون مركبا إذا من واحد وخمسين نفرا من أعضاء الديوان العالي والأعضاء المرتبة كما ذكر يحكمون بأكثرية الثلثين تطعيا وتطبيقا للقوانين الموضوعة على الدعاوى التي تقرر الدائرة الاتهامية على لزوم محاكمتها وحكمهم غير قابل الاستئناف والتمييز .



﴿ في أمور المالية ﴾

٩٦ - المادة السادسة والتسعون في أن يمكن وضع أحد تكاليف الدولة وتوزيعه واستخصاله ما لم يتعين بقانون .

٩٧ - المادة السابعة والتسعون في أن ميزانية (بودجه) الدولة هي قانون مبين بالتقريب وارداتها ومصارفاتها وهو القانون المستند عليه بوضع تكاليف الدولة وتوزيعها وتخصيلها .

٩٨ - المادة الثامنة والتسعون في أن البودجه اعطى قانون الموازنة العمومية يقبل في المجلس العمومي بعد التتقيق عليه مادة لمادة والجداول المربوطة به الجامعة لمفردات الواردات والمصارفات المضمنة تنقسم إلى أقسام وفصول ومواد متعددة توافقا لا نموذجها المعتنن نظاما والمذكرات عليها أيضا تجري فصلا لفصلا .

٩٩ - المادة التاسعة والتسعون في أن لائحة قانون الموازنة العمومية تعطي لبيئة الميعرثان عقب فتح المجلس العمومي ويمكن وضعه في موقع الإجراء قبل دخول السنة المتعلق بها .

١٠٠ - المادة العاثة في أن يجوز صرف مال من أموال الدولة خارجا عن الموازنة ما لم يتعين ذلك بقانون مخصوص .

١٠١ - **المادة الأولى بعد المائة** في إذا تحقق لزوم قوى الاختيار مصاريف خارجة عن الموازنة لأسباب مجبرة فوق العادة في الوقت الذي لا يكون فيه المجلس العمومي ملقدا يجوز تدارك المبلغ اللازم لتسوية ذلك المصروف وصرفه بعد عرضه على الحاضرة المطلقة والاستئذان ومنور الإرادة السنية بخصوصه على وجه أن تكون مسئولية ذلك على هيئة الوكلاء وأنهم يعملون لائحة القانون المتعلقة به إلى المجلس العمومي عقب فتحه.

١٠٢ - **المادة الثانية بعد المائة** في أن حكم قانون الموازنة هو عن سنة واحدة ولا يجري حكمه خارجا عن تلك السنة وإنما إذا فسح مجلس المبعوثان لبعض أحوال خارقة للمادة قبل أن يقرر الموازنة لوكلاء الدولة إذا يمدون جريان أحكام موازنة السنة السابقة إلى حين اجتماع مجلس المبعوثان الآتي وذلك بقرار تتحقق عليه الإرادة السنية على وجه أن حكم القرار لا يتجاوز السنة الواحدة.

١٠٣ - **المادة الثالثة بعد المائة** في أن قانون المحاسبة التقديرية يبين صحة المبالغ المتحصلة من واردات تلك السنة ومقدار المصروفات الواقعة لمصاريفها ويكون شكله وتقسيماته مطابقين للقانون الموازنة العمومية.

١٠٤ - **المادة الرابعة بعد المائة** في تسلي لائحة قانون المحاسبة التقديرية إلى المجلس العمومي بعد أربع سنين من اعتبار ختام السنة المتعلقة بها بشرط أن لا تتجاوز هذه العدة.

١٠٥ - **المادة الخامسة بعد المائة** في يتركب ديوان محاسبات لروية محاسبات مأموري قبض أموال الدولة وصرفها والتتبع على محاسبات السنة التي تنظمها التدوير على وجه أن لديوان المذكور يعرض على هيئة المبعوثان مرة في السنة خلاصة تنفيذاته ونتيجة مطالعاته بتقرير مخصوص وعليه أيضا أن يعرض على الحاضرة المطلقة مرة في كل ثلاثة أشهر تقريراً عن أحوال المالية بواسطة رئاسة الوكلاء.

١٠٦ - **المادة السادسة بعد المائة** في تتركب أعضاء ديوان المحاسبات من اثني عشر شخصا ويلتصّب كل منهم بالإرادة السنية ويستمر في إدارته ما دامت الحياة ولا يفصل عنها ما لم تصالح هيئة المبعوثان بالأكثرية على إزيمه.

١٠٧ - **المادة السابعة بعد المائة** في تعيين أوصاف أعضاء ديوان المحاسبات وتفصيل وظائفهم وصورة استعانتهم أو تذبذبهم أو ترقيتهم أو تقاعدهم وكيفية تشكيل أكلهم وترتيبها بنظام مخصوص.



﴿ في الولايات ﴾

- ١٠٨ - ﴿ المادة الثامنة بعد المائة ﴾ تأسيس أصول إدارة الولايات على قاعدة توسيع دائرة المأذونية وتفريق الوظائف وتعين درجاتها بنظام مخصوص .
- ١٠٩ - ﴿ المادة التاسعة بعد المائة ﴾ توسع بقانون مخصوص صورة انتخاب أعضاء مجالس الإدارة في مراكز الولايات والأقضية والقضايات وانتخاب أعضاء المجلس العمومي الذي يجتمع مرة واحدة في السنة في مركز كل ولاية على حدة .
- ١١٠ - ﴿ المادة العاشرة بعد المائة ﴾ تبين وظائف أعضاء المجلس العمومية في الولايات بقانون مخصوص يوضع لها ويشمل كذلك على المذاكرات في مطلب تنظيم الطرق والمعابر وتشكيل صناديق الاعتراف وتسهيل الصناعة والتجارة والفلحة وما يجري مجراها من الأمور النافعة وعلى ما يتعلق أيضا بالتشاور المعارف والتربية التي تعود منفعتهما على العموم ويحتوي على ما لهذا المجلس من الصلاحية بمرضى الاشتكا للمقدرات والمواقع التي يقتضي تبليغ الشكايات إليها عندما يرى ما يخالف أحكام القوانين وللنظمات الموضوعة في مطلب صورة توزيع التكاليف والمردات الأميرية واستعمالها وفي مطلب سائر المعاملات وذلك لمقصد سد الخلل وإصلاحه .
- ١١١ - ﴿ المادة العاشرة عشرة بعد المائة ﴾ يكون في كل قضاء لكل ملة على حدة مجلس جماعة للنظارة على صرف أموال الوصية للعمومي لهم على ما هو محرو في الوصايا على وجه أن تصرف حاصلات المسكلات والمسكلات والنفود المعروفة إلى المشروط لهم وإلى الخيرات والميراث وفقا لشرط الوصية والتعامل القديم وللنظارة كذلك على صورة إدارة أموال الأيتام توفيقا لنظمها المخصوص وهذه المجالس تتركب من أفراد ملتزمين من كل ملة على حدة على مقتضى النظمات المخصوصة التي تتركب في هذا المطلب وعلى هاتئ المجالس أن تعترف بان مرجعها إنما هو حكومتها المحلية ومجالس الولايات العمومية .
- ١١٢ - ﴿ المادة لثانية عشرة بعد المائة ﴾ تدار الأمور البلدية في دار السعادة والمعاملات الخارجية عنها بواسطة مجالس الدوائر البلدية التي تتركب بالانتخاب وصورة تشكيل هذه الدوائر ووظائفها وكيفية انتخاب أعضائها مبينين بقانون مخصوص .



﴿ في مواد ثمتى ﴾

١١٣ - ﴿ المادة الثالثة عشرة بعد المائة ﴾ إذا شهد أمارات وأثار تؤيد ظهور اختلال في إحدى جهات العمل فيحق للحكومة السنية والحالة هذه أن تطلب موقفا ومخصوصا "الإدارة العرفية" في ذلك العمل والإدارة العرفية إنما هي تعطيل للقوانين والنظامات الملكية موقفا والمحل الذي يوضع تحت الإدارة العرفية لتعين صورة أدائه بنظام مخصوص ومن ثبت عليهم بتحقيقات إدارة الضابطة الموثوقة بأنهم أغلوا بالسنية الحكومية يكون لخراجهم من العمل المحروسة وتبعدهم عنها منحصرًا بيد اقتدار الحضرة السلطانية .

١١٤ - ﴿ المادة الرابعة عشرة بعد المائة ﴾ أفراد العشائين مجبورون على تحصيل العتبة الأولى من المعارف وستعين درجات ذلك وفروعه بنظام مخصوص .

١١٥ - ﴿ المادة الخامسة عشرة بعد المائة ﴾ لا تشمل البتة مادة من مواد القانون الأساسي ولا تسقط من الاجراء بأى حجة أو سبب كان .

١١٦ - ﴿ المادة السادسة عشرة بعد المائة ﴾ إذا شهد لزوم صحيح قطعى حسب إيجاب الوقت والحال لتغيير بعض مواد القانون الأساسي وتعديلها بيجوز تعديلها على الشروط الآتية وهي أولاً أن يقع التكليف المتعلق بالتعديل من هيئة الوكلاء أو من هيئة الأعيان أو من هيئة المبعوثان ثانياً أن يقبل التكليف المذكور في هيئة المبعوثان بالكتابة الثلثين ثم يصالح على قبوله من هيئة الأعيان أيضاً بالكتابة الثلثين فتمت ثم ذلك وتعقد على هذا المركز الإرادة السنية تصوير حينئذ تلك التعديلات دستوراً للعمل أما المادة الواقع التكليف على تعديلها من القانون الأساسي فتستمر مريحة الاجراء من غير أن تلغى قوتها وحكمها إلى أن تتم المذكرات اللازمة بمعدلها وتتعلق بخصوصيتها الإرادة السنية .

١١٧ - ﴿ المادة السابعة عشرة بعد المائة ﴾ إذا أزم الأمر لتفسير مادة قانونية وكانت متعلقة بالأمور المدنية فعلى محكمة التمييز تعيين معناها وإذا كانت متعلقة بالإدارة الملكية ينال تعيين معناها بشورى النوبة أما إذا كانت من متعلقات هذا الأساسي فتعين معناها منوط بهيئة الأعيان .

١١٨ - « المادة الثامنة عشرة بعد المائة » أن اللوائح والأنظمة والمعامل والمعدات الموجودة الآن دستوراً للعمل تستمر مفعلة الاجراء ما دامت لا تلغى أو تعدل بالتقنين والأنظمة التي توضع في المستقبل .

١١٩ - « المادة التاسعة عشرة بعد المائة » أن أحكام التعليمات المؤقتة المتعلقة بالمجلس العمومي المؤرخة في ١٠ شوال سنة ١٢٩٣ تجرى فقط لغتاء مدة انعقاد المجلس العمومي الذي يجتمع في المرة الأولى ولا يكون حكمها جارياً بعد ذلك .

ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

- ابن أبيس : محمد بن أحمد (ت ٩٣٠ هـ)
بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٢ ، القاهرة ، مطبعة بولاق ١٣١١ هـ .
- المسقاوي : أبو الخير محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ)
الضوء النافع لأهل القرن التاسع ج ٣ ، القاهرة ، ١٩٣٤ م .
- المعري : شهاب الدين أبو العباس القلساني (ت ١٠٤١ هـ)
١- زاهر الرياض في أخبار عياض ، نشر منه ثلاثة أجزاء مصطفى السقا
والخريز (القاهرة ١٩٣٩ م)
٢- فتح الطبيب من ضمن الأئمة الربيع - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد
- القاهرة ، وتحقيق إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر ١٣٨٨ هـ .
- مؤلف مجهول : وثيقة أندلسية عن سقوط غرناطة - ترجمة محمد عبد الله الشرفاوي ،
القاهرة ، دار الهداية .

ثانياً : المراجع العربية :

- إبراهيم طرخان : مصر في صدر دولة المماليك الجراكسة ١٢٨٢-١٥١٧ ، القاهرة ،
الهيئة المصرية ، ١٩٦٠ .
- أحمد مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية ، مؤسسة
شباب الجامعة ، ٢٠٠٣ .
- بركاتة لويس : استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية - ترجمة سيد رضوان علي ،
جدة ١٤٠٢ هـ .
- ستثنى ابن بول : الدول الإسلامية - القسم الأول - ترجمة محمد صبري فرحات
- ٢٠٠٣ .
- سيد رضوان علي : السلطان محمد الفاتح بطل الفتح الإسلامي في أوروبا الشرقية ، جدة
١٤٠٢ هـ .
- عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج ٢ ، القاهرة ،
الأجلو المصرية ١٩٨٠ .

- عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ، بيروت ١٩٧٢ .
- علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية وعلاقتها الخارجية ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمة تيبه لمين ومليور بعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٧٩ .
- محمد خليل بيهم : فلسفة الحكم العثماني ج٢ ، بيروت ١٣٧٢هـ/١٩٥٤م .
- محمد عبد الله طعان :
- ١- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب ١٣٥٠هـ .
- ٢- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ج١ ، القاهرة ، مطبعة مصر .
- محمد قريه : تاريخ الدولة العثمانية العثمانية ، دار الجبل ١٩٧٧م .
- محمود رزقي سليم : عصر سلاطين المماليك ونتائج العثماني والألباني ج١ ، القاهرة ، مكتبة الآداب ١٣٦٦هـ .
- محمود الشبلي : المسألة الشرقية - دراسة وثائق عن الخلافة العثمانية ، القاهرة ، مكتبة وهبه ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ .
- محمود صالح منسي : حركة القبط العربية في الشرق الأقصى .
- مؤلف مجهول : وثيقة أنبلسية عن سقوط خولقة ، ترجمة محمد عبد الله الشرقاوي ، القاهرة ، دار القديسة .
- هاميلتون جيب وهارولد برون : المجتمع الإسلامي والغرب - ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى وأحمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، دار المعارف .

ثالثاً : المراجع الأجنبية :

- 1- Irving , W : Legends of the conquest of Spain .
- 2- Pres Cott , William , H : History of the reign of Ferdinand and Isabella the Catholic , London 1895' .

رابعاً : الدوريات :

- المجلة التاريخية العربية : المجلدان ٢٥ ، ٢٦ .
- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد السادس عشر ج١ ، مايو ١٩٥٤ .
- المجلة المغربية ، تونس ، العدد الثالث ، يناير ١٩٧٥ والعدد ٢٥-٢٦ يونيو ١٩٨٢ .
- الهلال : من أكتوبر ١٩٠٨ إلى يوليو ١٩٠٩ .

فهرست

صفحة	
٣	- تمهيد
٧	- الموضوع الأول : السلطان محمد الثاني وفتح القسطنطينية .
١٧	- الموضوع الثاني : مواقف الدولة العثمانية ولقوى الإسلامية الأخرى من سقوط الأندلس .
٢٥	- الموضوع الثالث : الاكتشافية
٣١	- الموضوع الرابع : العثمانيون والعلم العربي
٤٩	- الموضوع الخامس : الحركات الانفصالية ضد الدولة العثمانية .
٥٩	- الموضوع السادس : السلطان عبد الحميد وفكرة الجامعة الإسلامية .
٦٥	- الموضوع السابع : الدولة العثمانية والحرب العالمية الأولى .
٧١	- الموضوع الثامن : الدولة العثمانية ماليا وما عليها .
٩٣	- خاتمة .
٩٥	- الملاحق .
١١٥	- أهم المصادر والمراجع .